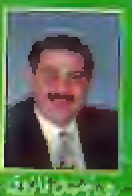

روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
152
القناع


د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

- ثلاثة أبطال .. يقاتلون المحتل كالأسود ..
- وأربعة أسرى .. في أحراش (كولومبيا) ..
- وصيدلية حسناء هاربة ..
- والكل يسعى لكشف القناع .. عما يربط كل هذا ببعضه ..
- فهل يمكن أن ينتزع القناع ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة .. وشارك بعقلك وكيانك رحلة الرجل .. (رجل المستحيل

152



رجل المستحيل

(أدهم صبري) .. ضابط مخابرات مصري، يرمز إليه بالرمز (ن-1) .. حرف (النون)، يعني أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعني أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبري) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل .. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو .. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حية، وبراعته الفائقة في استخدام أدوات التنكر (والمكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد في سن (أدهم صبري) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبري) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذي أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- تقرير ..

صمت عجيب، ذلك الذي خيم على تلك المنطقة الوحشية، من أحراش (كولومبيا)، في تلك الساعة المبكرة، من ذلك اليوم ..

كانت الشمس تتثاءب، وتتأهب لبدء رحلة شروقها، والكائنات كلها تترقب مقدمها في شغف، بعد ليلة ممطرة طويلة، وأوراق وأغصان الأشجار تنفض عنها قطرات الماء الثقيلة، و ...

وفجأة ! دوى هدير محركات سيارة قوية، من سيارات الدفع الرباعي، انطلقت كوحش ثائر، تشق طريقها بين الأحراش، في سرعة مخيفة، توحي بأن قائدها لا يبالي بما يعترض طريقه، من نبات ..

أو حيوان ..

أو طير ..

ثم تبعت تلك السيارة سيارة ثانية ..

وثالثة ..

ورابعة ..

وكلها تنطلق على نفس النحو ..

وبنفس السرعة ..

وفي ذعر هستيري، انطلق كل من قاطنات الأحراش، ينشد الفرار بحياته، أو يفسح الطريق أمام تلك الوحوش المعدنية، التي ملأت زمجرتها المنطقة كلها، وأيقظ ضجيجها الموتى في قبورهم ..

وعند منطقة كثيفة الأشجار، توقفت سيارة المقدمة بحركة حادة، جعلتها تدور حول نفسها على نحو مخيف، قبل أن يتصاعد من مخرج عادمها دخان كثيف، حجب جسد ذلك العملاق مفتول العضلات، الذي وثب منها في خفة مدهشة، وهو يحمل مدفعا آليا ضخما، في حجم ذراعه كلها، ولم تكد قدماه تلمسان الأرض، حتى أطلق نيران مدفعه هذا في السماء، وهو يطلق صرخة وحشية هادرة، امتزجت بدوي نيرانه، وبصرخات أطلقتها كائنات الغابات، لتصنع كلها لوحة عجيبة رهيبة مخيفة، قبل أن يخفض العملاق فوهة مدفعه، صارخا:

- أين أنتم ؟!

كان فريق من الرجال قد برز بالفعل، مع هدير محركات السيارات وهي تقترب، ولكنهم وثبوا كلهم أمامه، فور إطلاقه نيرانه، حتى إنه لم يكد يتم صرخته، حتى كانوا قد تراصوا في صفين، أشبه بجيش نظامي صغير، وفي تلك اللحظة، تألقت عيناه ببريق عجيب، وهو يدير بصره فيهم، قبل أن يصرخ فجأة، في ابتهاج وحشي:

- لقد أتممنا الصفقة.

انطلقت بعدها صرخات الظفر من الرجال، واندفعوا يتعانقون مع زملائهم، ممن أتوا بصحبته، لحمل مجموعة من الصناديق من السيارات، ونقلها إلى كتلة كبيرة، تغطيها شبكة مموهة هائلة عن الأنظار، في حين ظهرت امرأة قوية، خمرية البشرة، ذات شعر أسود فاحم، وعينين في اتساع وجمال عيون المها، وابتسمت وهي ترفع مدفعا آليا صغيرا، من الطراز الإسرائيلي، قائلة:

- كنت أعلم أنك ستعقدها.

تلقفها، ثم وثبت بين ذراعيه، وهي تطلق ضحكة ظافرة عابثة، فجذبها إليه، قائلاً:

- لن تصدقي ما سترينه يا (لوتشيا) .

واندفع بها نحو تلك الصناديق ، التي تراصت إلى جوار بعضها البعض ، وأضاف وهو يرفع الغطاء عن أحدها :

- هل وقعت عيناك يومًا على مشهد أكثر جمالاً ؟!

أطلقت شهقة قوية ، بدت وكأنها قد انتزعت أنفاسها ، وهي تحدق في تلك الكمية المهولة من الدولارات الأمريكية ، من فئة المائة ، والتي تملأ الصندوق ، وبرقت عيناها على نحو جعله يطلق ضحكة ظافرة أخرى ، وهو يشير بيديه إلى الصناديق التسع الأخرى ، هاتفًا :

- كلها تحوي الكمية نفسها .

انحنت (لوتشيا) ، والطمع يتقاطر مع كل خلية في جسدها ، وقبضت على كمية من الدولارات ، وألقتها في الهواء ، ثم تركتها تنسكب على جسدها ، هاتفة :

- هل حصلت على المبلغ كاملاً ؟!

هتف في حماس :

- بالتأكيد .

ثم مال على أذنها ، وتابع بلهجة تكفي لمضاعفة جشعها ألف مرة :

- مليار دولار .. أكبر صفقة في تاريخنا كله .

أطلقت ضحكة مجنونة ، ووثبت بين ذراعيه مرة أخرى ، هاتفة :

- هل سيمكنك الآن أن تبتاع لي جزيرة خاصة ؟!

لوّح بساعديه هاتفًا :

- بالتأكيد .

صفقت بكفيها في جذل كالأطفال ، وهي تقول في لهفة :

- دعني أراجع الخريطة مرة أخرى إذن ، وسأنتقي الجزيرة التي أريدها ، و ......

قبل أن تتم عبارتها ، اندفع أحد الرجال إلى المكان ، هاتفًا :

- سنيور (لامنس) .. لقد تلقينا اتصالاً لاسلكيًا عاجلاً .

التفت إليه (باولو لامنس) ، زعيم تجار المخدرات في أحراش (كولومبيا) ، وهو يتساءل :

- بشأن الأسرى ؟!

أجابه الرجل فى توتر ، وهو يناوله ورقة مطوية :

- كـلاً .

اختطف (لاماس) الورقة من يده اختطافاً ، وفضها فى سرعة ، ولم يكد يطالع محتواها ، حتى انقلبت سحنته على نحو مخيف ، ثم عاد يرفع فوهة مدفعه الآلى .

وانطلقت نيرانه هذه المرة بلا انقطاع ..

وسط أحراش (كولومبيا) ..

الرهيبة ..

* * *

« كولومبيا ؟! »

هتف مدير المخابرات المركزية الأمريكية بالكلمة ، فى دهشة مستنكرة ، وهو يطالع الأمر المباشر ، الذى تلقاه من الرئيس الأمريكى ، ثم لم يلبث أن ألقى الورقة على سطح مكتبه ، وهو ينهض ، مستطرداً فى حدة غاضبة :

- ألن يكفوا عن عبثهم الأحمق هذا ؟!

تساءل مساعده فى شىء من الحذر :

- بم يطالبوننا هذه المرة ؟!

- بشن حرب .

ارتفع حاجبا مساعده ، وهو يهتف :

- شن حرب ؟ ومنذ متى كان ...

استوقفه مدير المخابرات الأمريكى بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول فى حدة :

- اصمت .

أطبق الرجل شفتيه على الفور ، دون أن يتم تساؤله ، الذى لم يفصح عن فحواه بعدها أبداً ، فى حين استطرد مديره فى عصبية :

- اصمت ودعنى أفكر .

قالها ، واتجه نحو النافذة البعيدة لحجرته ، وعقله يسترجع هذا الموقف المتشابك العجيب ..

منذ تسلم منصبه هذا ، عقب إجبار سلفه على الاستقالة ، كان الموقف يوحى بأن كل الأمور قد هدأت واستقرت ..

الزعيمة الغامضة خسرت معركتها الطويلة العنيفة ، بعد مواجهة شرسة مع (أدهم صبري) ، في قلب المحيط الأطلنطي ..

مواجهة انتهت بنسف جزيرتها ..

ومصرع الجميع ..

هي ..

و(منى) ..

و(قدري) ..

و(شريف) ..

و(ريهام) ..

و(أدم) ، ابن (أدهم) من (سونيا جراهام)(*) ..

وحتى (أدهم صبري) نفسه(**) ..

أو هكذا ما أعلنته البيانات الرسمية ..

(*) راجع قصة (جزيرة الجحيم) .. المغامرة رقم (٩١).

(**) راجع قصة (النهاية) .. المغامرة رقم (١٠٠).

أو ما تمنى الجانب الأمريكي حدوثه ..

واستراح إليه ..

إلا أنه لم يجد دليلاً مادياً على حدوثه أبداً ..

مئات من الغوص الفاحص [illegible] ، لم تثبت وجود أي دليل ، على مصرع (أدهم) ..

أو أحد من رفاقه !!

ومع تاريخ (أدهم) العجيب ، الذي لا يشبه تاريخ أي رجل مخابرات آخر ، بدأ هذا يثير في النفوس الكثير من الشك ..

والترقب ..

والقلق ..

والخيال ..

وبخاصة عندما ظهر ذلك المقاتل المجهول ، في قلب مدينة (الفالوجا) العراقية الباسلة ..

مقاتل من طراز خاص ..

خاص جداً ..

أسلوبه لا يشبه أبدًا الأسلوب التقليدي لرجال المقاومة العراقية .. وجرأته تبدو بلا حدود ..

ومهاراته تتجاوز حدود المنطق ..

وتتجاوز المستحيل ..

كان يظهر فجأة ، عند الحاجة إليه ، ثم لا يلبث أن يختفي بسرعة ، بعد أن ينجز مهمته ببراعة مذهلة ..

وكان من الطبيعي أن يثير هذا انتباه واهتمام الجميع ، وعلى رأسهم المخابرات المصرية نفسها ..

وبكل ما تملك من وسائل ، سعت المخابرات المصرية لمعرفة هوية ذلك المجهول ..

وتسابق معها الكل في هذا ..

الأمريكيون ..

والإسرائيليون ..

وحتى العراقيون أنفسهم ..

ولكن ذلك المقاتل ظل مجهولاً ..

جريئًا ..

مقدامًا ..

وعنيفًا ..

وبدأ الكل يتشيع لطريقته ..

وانفعالاته ..

وتوقعاته ..

وذلك المقاتل يواصل نجاحاته ..

وانتصاراته ..

وتحطيمه لغطرسة وجبروت المحتل الأمريكي الغاشم ..

وفي الوقت ذاته ، ظهرت على الساحة فجأة تلك الصينية الحسناء (لينا) ، مساعدة الزعيمة السابقة ، وتجري اتصالاتها مع مستر (X) ، زعيم أقوى تنظيم إجرامي للجاسوسية في العالم ، وتعرض عليه صفقة مثيرة للغاية ..

رفاق (أدهم) الأربعة ، مقابل مبلغ ذي ستة أصفار ..

وكان هذا يعني أن (منى) و(قدري) و(شريف) و(ريهام) على قيد الحياة ..

أو أنه من المحتمل كونهم كذلك ..

لا أحد أمكنه الجزم ..

فالصهيونية مراوغة للغاية، وخبيثة إلى حد مستفز، ومخادعة على نحو مميز ..

وقاتلة بلا رحمة ..

وبلا قلب ..

وعلى الرغم من كل احتمالات الخداع، وافق مستر (X) على إتمام الصفقة، لما قد تحمله له من تفوق ..

وحصلت (تيا) على أسعارها الستة ..

ولم يحصل هو على صفقته ..

لقد خدعته هي حتى اللحظة الأخيرة، وأخبرته أن رفاق (أدهم) هناك، في قلب أدغال (كولومبيا)، تحت حراسة صديقها إمبراطور المخدرات الوحشي (بابلو لامبس) ..

ولأنه لم يعتد الخسارة، قرر مستر (X) أن يربح المعركة بأية وسيلة كانت ..

حتى الحرب ..

في الوقت نفسه، كان الإسرائيليون قد أرسلوا إلى (العراق) المحتل ضابط مخابراتهم الفذ (إيتان كوهين)، للمعاونة في كشف هوية ذلك المقاتل المجهول، والتي انحصرت في احتمالين، لا ثالث لهما ..

إما أنه أحد رجال المخابرات العرب، الذين قام (أدهم صبري) بتدريبهم شخصياً ..

أو أنه (أدهم صبري) نفسه ..

(أدهم)، الذي لم يثبت مصرعه، في انفجار جزيرة الزعيمة، أو ....

« كلا .. هذا مستحيل !! »

هتف مدير المخابرات الأمريكي بالكلمة في عصبية، جعلت مساعده يسأله في حذر:

- ما هو المستحيل يا سيدي ؟!

أشار المدير بيده في عصبية، إلى تقرير موضوع فوق مكتبه، وهو يقول :

ـ ذلك التقرير هناك، وصلني منذ دقائق فحسب، ويؤكد أنهم قد عثروا أخيرًا على ما يثبت مصرع ذلك المصري، في جزيرة الزعيمة!

بهت مساعده للقول، وغمغم، على الرغم من إدراكه الجواب جيدًا:

ـ أي مصري؟!

هتف مدير المخابرات محنقًا:

ـ (أدهم).. (أدهم صبري).. إنه ليس ذلك المقاتل المجهول في (العراق) حتمًا.

اتسعت عينا مساعده، وهو يقول مبهوتًا:

ـ من هو إذن؟!

لم يدر أنه، وفي نفس اللحظة التي ألقى فيها تساؤله، كان هناك من يطرح التساؤل نفسه هناك..

في (العراق)..

وبالتحديد في حجرة مكتب الجنرال الأمريكي (أيكون)، المسئول في مكافحة المقاومة العراقية، والذي حاصر فيه

الإسرائيلي (إيثان كوهين) ورجاله ذلك المقاتل المجهول، و...

ودوت الرصاصات(*)..

* * *

لم يشعر (إيثان كوهين)، في حياته كلها بالظفر والزهو، مثلما شعر بهما في تلك اللحظة، في مكتب (أيكون)..

لقد كشف خداع ذلك المجهول، وحاصره مع رجاله، وصوبوا فوهات مدافعهم الآلية إليه..

ولأنه درس تاريخ (أدهم صبري) جيدًا، وتعلم منه الكثير، فقد اتخذ قراره بألا يقع أبدًا في الخطأ الشهير، الذي وقع فيه كل من أوقعوا بـ(أدهم) من قبل..

وتصوروا أنهم قد انتصروا عليه..

إنه لن يفاوض..

أو يناقش..

أو يحاور..

(*) لمزيد من التفاصيل، راجع الجزء الأول (العودة).. المغامرة رقم (١٠١).

سينطلق رجاله النار على من أمامهم أولاً

وبعدها ينزع عن وجهه القناع ..

خطة لا يمكن أن تفشل .

لن تمنح خصمه فرصة واحدة للإفلات

لذا فبمنتهى الحزم ، رفع يده بإشارة يخاطب رجاله جيداً

وكان عليه أن يخفضها

فقط يخفضها ، لتنطلق الرصاصات ، وتحصد تلك المجموعة بلا رحمة .

و ...

ولكن الرصاصات دوت فجأة ، في مكتب الجنرال (ليكون)

بمنتهى القوة .

حتى قبل أن يخفض يده

ومع دويها ، ارتفع صوت صارم ، يقول بالعبرية

ـ سأنسف رأس أول من يتحرك منكم

استدار (إيتان) ورجاله في ذهول ، إلى الرجل الذي يتراجع إلى الخلف ، والذي خفض فوهة مدفعه الآلي نحوهم ، والدخان يتصاعد منها ، إثر الرصاصات التي أطلقها على السقف ، وهو يتابع بنفس الصرامة ، ونفس العبرية السليمة

ـ وسيسعدني أن أبدأ بأعلاكم رتبة

ارتجف الجنرال (ليكون) مع العبارة ، وحدق في الرجل بدوره ، وصرخ عندما رأى (إيتان) ورجاله يلقون أسلحتهم أرضاً :

ـ ليس هذا !! ليس

قاطعه (إيتان) ، وهو يهتف في عصبية

ـ (جوزيف) .. هل ..

كان ولم يكد رجال الجنرال (ليكون) يخطون ، وهم يعدون نحو حجرة مكتبه ، إثر دوي الرصاصات ، عندما التقط حامل المدفع الآلي (إيتان) ، قائلاً في غلظة

ـ إنني لست مستعداً للهذر .

سيطلق رجاله النار على من سامهم أولا

بعدها ينزع عن وجهه القناع .

خطة لا يمكن أن تفشل

لو منح الخصم فرصة واحدة للإفلات

لذا ، فبمنتهى الحزم رفع يده بإشارة يحفظها رجاله جيدا

وكان عليه أن يخفضها

فقط يخفضها ، فتنطلق الرصاصات وتحصد ذلك المجهول بلا رحمة

و

ولكن الرصاصات دوت فجأة ، في مكتب الجنرال (أليكوس)

بمنتهى القوة ..

حتى قبل أن يخفض يده

ومع دويها ارتفع صوت صارم يقول بالعربية

ـ سأنسف رأس أول من يتحرك منكم

استدار (إيثان) ورجاله في ذهول ، إلى الرجل الذي يرجع إلى الظلمة ، والذي خفض فوهة مدفعه الآلي نحوهم ، والدخان يتصاعد منه ، إثر الرصاصات التي أطلقها على السقف ، وهو يتابع بنفس الصرامة ، وبنفس العربية السليمة

ـ وسيسعدني أن أبدأ بأعلاكم رتبة

ارتجف الجنرال (أليكوس) مع العبارة ، وحدق في الرجل بذعر ، وغمغم عندما رأى (إيثان) ورجاله يلتفتون لمواجهته صوبه

ـ أليس هذا ؟! أليس ...

قاطعه (إيثان) ، وهو يهتف في عصبية

ـ (جوزيف) .. هل ..

لكن وقع أقدام رجال الجنرال (أليكوس) يعلو ، وهم يعدون نحو حجرة مكتبه ، إثر دوي الرصاصات ، عندما قطع حاجز المدفع الآلي (إيثان) ، قائلا في غلظة

ـ إنني لست صديقك العزيز

انفجرت عبرته فيضاً من الضحك لا حد له في حجرة المكتب، وراح ثلاثة يلقون بصرهم بين (جوزيف) الزائف، وذلك الذي ينتحل شخصية رجل المخابرات الإسرائيلي، والذي انحنى يجذب الجنرال (أيكون) من أذنه، كما لو كان طفلاً صغيراً، وهو يقول في سخرية:

- عزيزي الجنرال... مر أولئك بالبقاء خارج حجرتنا بطريقة ما، حتى لا يضطروا لنسف رأسك القبيح.

ارتجف (أيكون) هذه المرة، من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وهو يضغط زر جهاز الاتصال الداخلي، صارخاً:

- هنا الجنرال (أيكون)... أطلب منكم... ابقوا خارج حجرة مكتبي... ابقوا خارج الحجرة، وإياكم أن تقتحموها، دون أوامر مباشرة مني.

ثم انتابته حالة عصبية مباغتة، جعلته يصيح:

- وأقسم أن أقتل بنفسي من يخالف هذه الأوامر منكم.

قبل أن تكتمل صرخته، توقف وقع الأقدام المرتفع في الخارج، وتحول إلى حركة حائرة، جعلت (إيلي) يقول في توتر:

- ربما يتوقفون، ولكنهم لن يسمحوا لكم بمغادرة هذا المكان أبداً... إنهم محترفون، وسيعملون فوراً على تطويق المكان، ومبانيه، ومحاصرته...

أجابه الرجل الذي ينتحل هيئته في صرامة:

- لا داعي لأن تشرح لنا أمور الأمن أيها الوغد... فمن الواضح أننا نعرفها أكثر منكم، وإلا ما نجحنا في زرع أحدنا وسط رجالك، تحسباً لموقف كهذا.

انعقد حاجبا (إيلي) في شدة، وراح عقله يدرس الموقف في سرعة مدهشة، قبل أن يقول في بطء:

- أنتم ثلاثة... أليس كذلك؟!

تبادل الرجلان نظرة، وانحنى منتحل شخصيته يقول للجنرال (أيكون)، في مزيج عجيب من السخرية والصرامة:

- والآن يا وجه القرد... تعاون معنا... [illegible] الإسرائيليين في العالم.

قالها، وانتزع مسدس المقتحم، والتفت نحو الجنرال، قبل أن يضيف:

- وسنقدر لك سرعة الإذعان.

شعر (إيتان) بالغيظ يكاد يلتهم كيانه كله .. والجنرال يقوده بقوة إلى مقعد طويل ، ويتمنى في أعماقه لو أن طاقم الحمى بالكفاءة اللازمة ، لمنع هذين الرجلين من الفرار .. كما راح يتساءل عن الوسيلة التي أعداها لهذا ، والتي تجعلهما يصران على هذا النحو العجيب

لمعتل المقطع الآلي أسند ظهره إلى الباب ، وعقص قوصة معطفه ، في شيء من الاستهتار ، في حين جلس الثاني على مقعد (جاكوب) المدور ، وراح يحركه في هدوء واسترخاء ، كما لو كان يستمتع بكل لحظة من وقته ، أو كأن الموقف لا قيمة له ، والموقف أهدأ من نهاية سعيدة ، على جزيرة مهجورة

إنهما يدبران أمرًا ما حتمًا

لم يشك في أنه سيخرجهما من هذا المكان

ودون أية خسائر ..

« ماذا يفعلان هنا ؟! »

انطلق السؤال من بين شفتيه بغتة ، في عصبية شديدة جعلت حامل المقطع يبتسم في سخرية ، في حين أدار الآخر عينيه إليه في بطء ، قبل أن يجيب في برودة أقسى من الثلج

- أردنا أن نعرف لماذا أنتم هنا !

نهض (إيتان) للجواب ، واتسعت عيناه عن آخرهما لحظة ، ثم عاد يعقد في السيطرة على أعصابه في براعة ، وهو يتساءل في حذر :

- وهل عرفتم ؟!

كان الجنرال قد انتهى من تأكيد الحصار ، وتراجع وهو يلهث ويتصبب عرقًا غزيرًا ، عندما عاد رجل المخابرات الإسرائيلي في صوت شبيهه قد التهبتا تدوران كالجحيم ، وهو يرمقه بنظرة حنقت كل بغض الدنيا ، قبل أن ينهض من خلف مكتب الجنرال (جاكوب) ، ويتجه نحوه في بطء ، جعله يضيف في عصبية شديدة ، ورأسه يتراجع كما لو أنه يحاول الفرار

- لسنا نحن من لعمل عندكم

حل شبيهه نحوه ، والتقت عيناهما ، وارتجف قلب (إيتان) ، وهو يحدق فيما بدا له أشبه بعيني أسد مفترس ، ولكنه تمالك صوتًا تجمد له الدماء في العروق ، يقول :

- ربما .. ولكنكم تسعون لأن تزالوه .. ولكن هيهات .
لن يمكنكم البقاء على أرضه طويلا

كان صوته يرتجف .. ولكن الإسرائيلي تمتم

ـ فقدتم هذا منذ أكثر من نصف قرن .. ولكننا بقينا

أجابه الأسد الموقف بنفسه ، بصوته الرهيب

ـ ستهرب .. ولكن تحت الأرض .. وبعد موتك

مع العبارة .. ستهوي عنق (إيتان) دفعة واحدة

وتذكر أين رأى تلك العينين من قبل

لم يكن قد التقى بصاحبهما من قبل قط

ولكنه شاهد عشرات الصور له

وفي كل صورة ، كان يتوقف دومًا عند العينين

عينيه

وبصوت حمل القلق كله ، غمغم الإسرائيلي ، دون
أن يرفع عينيه عن عيني شبيهه

ـ إنه أنت !!

لم يكد ينطقها ، حتى تفجر فجأة ، في المكان كله ، صوت
قوي ، ينطلق عبر مكبر صوتي ، تحمله هليوكوبتر حربية
أمريكية ، يهتف

ـ هنا قوة الاقتحام الخاصة .. استسلموا أو نبدأ الهجوم
فورًا

وقبل حتى أن ينتهي الهتاف ، تحطم زجاج نافذة الحجرة ،
بعدد من قنابل الدخان .. التي تفجرت في عنف

وانطلق الدخان يغمر المكان ،

وانطلق (أدهم) في سرعة ..

وبدأ رجاله الهجوم ،

بمنتهى العنف

٢- الأبطـــال..

« هوريت ** »

صرخ مستر (X) بالعبارة في غضب هادر ، كانت تهتز له تلك الشاشة المسطحة ، التي تحمل صورته ، وينطلق منها صوته المعدل آليا ، وإن اهتز به بالتأكيد جسد محادثه ، الذي بدا وكأنه قد فقد ثقته المعتادة دفعة واحدة ، وهو يجيب في اضطراب :

— لست أدري كيف فلتتها أيها الزعيم .. لقد كانت في حراسة رجلين .. أقلهما حجمًا بطولي بـ ...

قاطعه مستر (X) بنفس الغضب المتفجر :

— رجلان فقط ؟! أرسلت إليها رجلين فقط ؟!

ارتبك المحدث أكثر .. وهو يقول :

— إنها مجرد امرأة .

خيل إليه لحظتها أن ذلك الصمت ، الذي واجهته به صورة مستر (X) ، أقوى من صرخات الموت نفسها

وانحشرت الدماء في عروقه ..

وتمنى لو يجري ، وجد نفسه يتشبث بمقعده ، ويقاوم بكل اضطرابه قائلا :

— اطمئن أيها الزعيم .. سأتولى الأمر بنفسي ، و ...

كان يرغب في تهدئة الأمر ، وإكمال عبارته بأسلوب ديبلوماسي مصقول ، إلا أن استمرار صمت مستر (X) الرهيب جعله يبتر قوله ، ويتشبث بمقعده أكثر ، في حين واصل الزعيم صمته ليصبح لحظات بعدها ، قبل أن يقول في بطء مخيف :

— أتعلم كم كلفني فشلك هذا ؟!

حاول الرجل أن يزدرد لعابه ، إلا أن حلقه بدا جافا للغاية ، حتى جعل صوته يخرج متحشرجا ، وهو يقول :

— إننا لم نفشل بعد

تابع مستر (X) ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

— رقم لم تصنعه مطابع مصرف على تلك الفروض الدولية الرهيبة .. رقم من ستة أصفار .. ويقترب من خانة الأصفار السبعة

مرة أخرى ، حاول المحامي تهدئة الموقف ، مغمغما :

ـ إنهم لا يزالون داخل الحدود حتى ، وبرشوة بسيطة لرجال الشرطة ، يمكننا أن ...

قاطعه مستر (X) في صرامة قائلا :

ـ دعنا نعترف معا بأنك محام بارع ، يصعب تعويضه بـ (دون مورو) ، ولكن من الواضح أنك مخطط فاشل ، ومغامر أفشل .

مرة ثالثة عجز المحامي عن الاعتراض بكلمة ، وبدا له حاله أشبه بمصير ... حالة قاتمة ... وهو يتطلع في يأس إلى صورة مستر (X) ، الذي تابع في هدوء صارم مخيف :

ـ ومشكلتك أنك تدير منظمة خاصة مسلحة ، في عالم لا يعرف الرحمة ... عالم ينتظر أن تغمض عينيك فيه لحظة واحدة ، حتى ينقض عليك بلا رحمة ، ويلتهمك قبل أن يرتفع جفنك .

ارتجف صوت المحامي ، كما لم يرتجف من قبل ، وهو يقول :

ـ من ... من الذي يعنيه هذا يا مستر (X) ؟

تجاهله مستر (X) تماما ، وهو يتابع :

ـ وفي عالم كهذا ، أهم ما ينبغي أن تحرص عليه هو سمعتك ، وهيبتك ... لا يحق لك أن تتنازل عنهما أبدا ، مهما كان الثمن ... ومهما كانت التضحيات ...

كرر المحامي ، وهو يوشك على الانهيار :

ـ ما الذي يعنيه هذا ؟

ومرة أخرى ، تابع مستر (X) :

ـ العثور على محام آخر ، سيكون عملية شديدة الصعوبة ، وقد تستغرق وقتا طويلا ...

بدا للمحامي أن الأمل يكمن في تلك العبارة ، فهتف متضرعا :

ـ سأخدمك بكل إخلاص ... سأتفانى في خدمتك ... بل سأخفض أتعابي إلى النصف ... بل إلى الربع ... هل تدرك كم سيوفر لك هذا ؟

أجابه مستر (X) ، في برود صارم مخيف :

ـ والسمعة الضائعة ... والهيبة المفقودة ... من سيعوضهما ؟!

بدا ذلك أشبه بالنطق بالحكم ، فانهار المحامي عندئذ تماماً ، وهو يقول :

- الرحمة أيها الزعيم .. الرحمة .

تراجع مستر (X) في مقعده ، وهو يقول :

- الرحمة شيء .. والتهاون شيء آخر يا عزيزي (الدون مورو) .. فلو تهاونت مع فاشل واحد ، فسيشجع هذا آخر على الفشل ، وبعدها سيأتي فاشل ثالث .. ورابع .. وخامس .. وقبل مرور ثلاثة أشهر .. تكون المنظمة الكبيرة كلها قد انهارت ، وستصبح فريسة لمنظمة أخرى ، تتقدم في جسارة ، كل من حققه في سلوك طويل .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفاً بمنتهى البطء :

- وباعتبارك محاميّ الخاص .. هل تنصحني ، في حالة كهذه ، بالتهاون ؟!

امتقع وجه المحامي .. وصار أشبه بورقة بيضاء ، وهو يغوص في مقعده بضع لحظات .. قبل أن ينتفض فجأة ، ويثب منه ، ثم يندفع نحو الباب ، محاولاً الخروج من حجرة الاجتماع بأي ثمن ..

وفي هدوء عجيب .. جلس مستر (X) على مقعده يراقبه ، وهو يحاول عبثاً فتح الباب .. ثم يلتفت إلى الطرق عليه بقبضتيه في قوة ، ثم ركله في شراسة ويأس ، قبل أن ينهار في جواره ، قائلاً للمرة الأخيرة :

- الرحمة .

وهنا قال مستر (X) في صرامة :

- لقد أردتها .

ومع قوله ، ضغط زراً أمامه ..

ومع ضغطة الزر ، سرى تيار كهربي قوي ، في أرضية حجرة الاتصالات ..

وانتفض جسد المحامي ..

انتفض ..

وانتفض ..

وانتفض .

ثم همدت حركته تماماً .

ومع خمودها ، ضغط مستر (X) زراً آخر أمامه .. وقال في صرامة :

- نريد استعادة تلك العصابة الخطيرة إلى قبضتنا، وبأي ثمن

نطقها وهو يضغط كل حرف منها بشدة

في حالة كهذه، لا يهم عدد القتلى

بل ولا يهم حتى أن تتم مطاردة رجال المخابرات المصرية في (كولومبيا).

المهم هو سمعة منظمته

وهيبتها

وقوتها..

* * *

تألقت عينا مدير المخابرات المصرية في قوة، وهو يتراجع في مقعده، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه، سائلاً معاونه الأول بكل الاهتمام:

- هل يمكنك أن تعيد على مسامعي ما قلته مرة أخرى؟

أشار معاونه إلى التقرير الذي نقل معه قوله

- كان الموقف متأزماً تماماً، في مكتب الجنرال (بيكون)، ووصلت هليوكوبتر خاصة، لتقف فوق سطح مبنى المكتب، بعد أن أعطت أوامر لرجال الأمن بالاقتحام

ابتسم المدير، وهو يقول:

- وكان من الطبيعي أن ينفذوا الأوامر

أجابه معاونه:

- لم يكن أمامهم سوى هذا، فعلى الرغم من أن (بيكون) شخصياً قد أمرهم بعدم الاقتحام، إلا أن نظام منظمة الإرهاب يحتم عليهم طاعة أوامر فرقة الطوارئ، والتي تجب أية أوامر أخرى، في الحالات الخاصة، ولما كانوا قد تلقوا شفرة التأمين، فقد نفذوا الأمر، واقتحموا حجرة المكتب، التي كان الدخان يغمرها

انعقد حاجبا المدير في عمق، وتمتم متسائلاً

- ثم؟!

تابع معاونه:

- ثم لم يجدوا داخله سوى (بيكون)، ورجل المخابرات الإسرائيلي ورجاله، أما الآخران، فقد نفذا تلك العملية بمعاونة الجنرال، فقد استغلا ستار الدخان الكثيف، وقفزا عبر النافذة إلى الهليوكوبتر، التي كان يقودها رجل ثالث لهم.

سنوس عنها أبيها بمنتصف الساعة فقط.. منتحلا شخصية قائد فرقة العوارى، وانطلق مبتعدا بثلاثتهم في منطقة مجهولة.. ولم يتم العثور عليهم حتى الآن.

أومأ مدير المخابرات المصرية برأسه في ارتياح، واتسعت ابتسامته قليلا، قبل أن يطلق زفرة ارتياح، مغمغما:

- إنه هو

ردد معاونه لحظة، قبل أن يقول في حذر:

- سيادة الوزير.. التقرير الذي ورد إلينا مؤخرا، يؤكد أن سيادة العميد (أدهم) قد ..

قاطعه المدير بإشارة من يده، وهو ينهض من خلف مكتبه، قائلا في حزم:

- التقرير الأمريكي يقول إنهم قد عثروا على بقايا تحمل البصمة الجينية لرجلك، في منطقة بدا عندها انفجار جزيرة الزعيمة، ومن معرفتي بـ (ن - ١)، أدرك جيدا أنه قد قاتل كالأسود، قبل أن يبلغ تلك اللحظة.. وقتال كهذا ستحدث فيه إصابات عديدة هنا من الجانبين.. بعضها سيحمل دون شك خلايا (ن - ١)، وبصمته الجينية

انعقد حاجبا المعاون في شدة، وهو يدرس هذا الاحتمال في ذهنه، قبل أن يقول:

- ولكن ألا تتصور أن سيادة العميد (أدهم)، بين منفذي تلك العمليات التخريبية في (العراق) يا سيادة الوزير؟ إنهم ثلاثة رجال دوما.. ولدينا بالفعل ثلاثة رجال مخابرات عرب، مختفين عن إداراتهم منذ فترة ليست بالقصيرة.. السوري (أكرم الهلالي)، والأردني (وجيه الهاشمي)، والمغربي (محمد بن علي).. وثلاثتهم من تلامذة العميد (أدهم)، الذين شهد لهم بالكفاءة والقدرة، ومن الممكن أن يكونوا قد اشتركوا في كل العمليات السابقة.

شد المدير قامته، قائلا:

- لقد فكرت في هذا الاحتمال أيضا، وقمت شخصيا بدراسة ملفات الثلاثة.. ووجدت أنهم قادرون بالفعل على القيام بكل جريء وباسل، وأن مهاراتهم، التي صقلتها تدريباتهم مع رجلك، تجعلهم على درجة عالية من القدرة والكفاءة

وصمت لحظة ، ثم أضاف في حزم

ـ إلا أنه ينقصهم أمر واحد

تساءل معاونه الأول في اهتمام

ـ وما هو ؟!

أشار المدير بسبابته ، قائلا

ـ الأسلوب

اعتدل المعاون في انتباه ، في حين تابع المدير بكل حزم

ـ إنك تستطيع أن تعلم شخصًا ما كل ما تعرفه ، وأن تسبغ عليه من خبراتك ومهاراتك ، ولكنك لا تستطيع أبدًا أن تعطيه بصمتك ، أو تمنحه نسخة طبق الأصل منك ؛ لأن لكل مخلوق ذاته ، وأفكاره وأسلوبه ، التي تخلق منه حالة خاصة جدًا لا تتشابه مع أية حالة أخرى

ثم توقف لالتقاط أنفاسه في عمق ، قبل أن يضيف في حسم

ـ ولذا فالعمليات تحمل بصمة ، لا يمكن أن تخطئها أبدًا ، حتى ولو أتت بألف دليل ودليل ، على عكس هذا

وانعقد حاجباه في تأمل ، وهو يقول بمنتهى الاعتزاز

ـ بصمة (ن ـ ١)

* * *

ـ كـلا ..

هتف رجل المخابرات الإسرائيلي (إسحاق كوهين) بالكلمة ، في غضب هادر عنيف ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، داخل حجرة مكتب الجنرال (بيكون) ، الذي انعقد حاجباه للحظة ، وهو يزمجر قائلا

ـ ماذا تعني بكلمة كلا هذه ؟!

مال (إسحاق) إلى الأمام قليلا ، وهو يقول في صرامة

ـ أعني أنه لا يمكن أن يتكرر ما حدث مرة أخرى .. لا يمكن أن نسمح لذلك المصري بخداعنا مرة أخرى .. لا بد أن نتخذ كافة التدابير والاحتياطات ، حتى لا نصبح أضحوكة الجميع

صاح به (بيكون) في غضب

ـ أية تدابير ، وأية احتياطات ؟! ألم نتخذ يومًا كل ما تصورناه من تدابير واحتياطات ، ثم تم تجاوز هذا كله في مطلع الأمر من

أن يتطور أكثر وأكثر ، ومن أن تتضاعف جرأتهم وتحرشاتهم في كل مرة

رمقه (إيتان) بنظرات تفيض بغضًا ومقتًا ، وهو يتكلم ، قائلًا بلهجة حملت حقيقة مشاعره

- عجبًا ! هذا الأسد الهصور أمامي ، وهو نفسه ذلك الذي كان يرتجف كالفأر المذعور ، بالأمس فقط ؟!

تحتقن وجه الجنرال (بيكون) ، وانعقد حاجباه الكثّان في شدة ، حتى كادا يحجبان عينيه الضيقتين ، وهو يعتدل في مقعده ، لينتفخ معه صدره القوي ، وهو يقول

- هل انتهت مهمتك هنا أيها الإسرائيلي ؟!

سأله (إيتان) في عصبية

- ماذا تعني ؟!

أجابه في صرامة قاسية

- أعني أنك ورجالك قد أتيتم إلى هنا في مهمة محدودة ، ألا وهي الحصول على قطعة أرض ، لبناء مقر لـ (الموساد) ، في قلب (العراق) ، ولقد تعاونت معكم مخلصًا ، وفقًا لما تلقيته

من أوامر ، من قيادتي في الولايات المتحدة الأمريكية ، حتى وقع اختياركم على تلك البقعة ، بين (بغداد) و(يعقوبة) ، وهنا تنتهي أوامري ، وتنتهي مهمتكم أيضًا

بدا (إيتان) أكثر عصبية ، وهو يقول :

- لم أفهم بعد ، ما الذي تعنيه بهذا ؟

بدا صوت (بيكون) جهوريًا قاسيًا ، وهو يقول

- يعني أنني لم أعد مضطرًا للتعاون معكم ... حتى تنتهي أوامرنا الرسمية ، وأرجو ألا أراكم بعد اليوم في مكتبي ، حتى ولو كان مصير العالم كله يتوقف على هذا

ثم عقد كفيه خلف ظهره ، مضيفًا بكل صرامة وبغض هائل

- وداعًا يا سيدي (إيتان) ... أتعستني كثيرًا معرفتي بك

ازداد انعقاد حاجبي (إيتان) في غضب هائل ، وهم بقول شيء ما

ومن الواضح أنه كان شيئًا بغيضًا ؛ لأنه بتره في أعماقه ، قبل أن يتجاوز شفتيه ، وقال في شيء من الحزم

- إننا لم نتسلم قطعة أرضنا بعد .

هو (إيكون) كثلجة القطبين ، وهو يقول بنفس البرود والصرامة

- هذه أمور جدية ، يمكنك مناقشتها مع (سيرجنت) في فريقي

ثم شد قامته ، مضيفاً في خشونة مقيتة

- وداعاً يا سيد (كوهين) .. لقد انتهت المقابلة .. إلى الأبد

رمقه (إيثان) بنظرة صامتة طويلة ، قبل أن يخرج في حزم

- سنلتقي

ثم غادر المكتب .. وصفق الباب خلفه

بكل القوة

والحنق ..

والغضب

* * *

انتفض جسد مستشارة الأمن القومي الأمريكية ، في غضب عصبي شديد ، على الرغم من تواجدها داخل حجرة المكتب البيضاوي لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وهي تقول

- أي عبث أخرق هذا ؟! كيف يرفض مدير مخابرات تنفيذ أمر مباشر منا ؟!

حاول وزير الدفاع الأمريكي تهدئتها ، وهو يقول

- الرجل لم يرفض .. ولكنه أبدى اعتراضه على الفكرة ، وما يمكن أن تجره على الولايات المتحدة من تبعات أمنية خطيرة

صاحت في حدة

- أية تداعيات ؟! إننا نتحدث عن عصابات مخدرات ، تمارس نشاطاتها في أدغال (كولومبيا) ، لتودي بأطفالنا وشباب

و

أطلق الرئيس زمجرة مختنقة

- لا داعي لهذه المحاضرة .. كلنا نعلم أن هذا ليس

هدف التحقيق .. تخرج كلماتك الأبية للصحافة قبل بعد

مطّ شفتيه الغليظتين في حنق ، في حين عدّل وزير الدفاع منظاره على عينيه ، وهو يقول متوترًا :

- توقع أن تلك الحرب لن تقتصر على أحراش (كولومبيا) .. كما تتصور مستشارة الأمن القومي ، فالكولومبيون لن يتورعوا عن شن حرب أكثر عنفًا ، في قلب شوارعنا هنا .. إنهم منتشرون بأعداد كبيرة في كل مكان ، والتقارير الأمنية تقول إن تسليحهم أقرب إلى تسليح جيش كامل ، لا يمكننا حصره أو تحديد أماكن تمركزه ، مما يعني أنك بحربك هذه ، يمكن أن تنقل صورة المقاومة العراقية ، إلى قلب (أمريكا) ..

تورّدت وجنتاها ، صائحة في شراسة :

- سنسحق تلك المقاومة ، كما ..

قاطعها الرئيس الأمريكي عندئذ في حدة :

- كلا ..

بترت عبارتها في سخط ، في حين نهض هو من خلف مكتبه ، قائلًا في توتر واضح :

- ستخرج الأمور عن سيطرتنا بأسلوبك السخيف هذا

وعجرفة ، قاتلة

- الأمور خرجت عن سيطرتك بالفعل

صاح بها :

- دعونا نحاول استعادتها إذن ..

التفتت بوجهها في حنق ، وهو يتمتم في توتر :

- تلك الخطوط مستمرة (!) يحاول بعضنا إلى ما يحقق مصلحته بغض النظر عن مصالحنا ، ويطالبنا بشن حرب مستحيلة ، في دولة أخرى ، في وقت يمضي فيه الأمريكيون ، في (أفغانستان) و(العراق) ، ويمضي فيه اقتصادنا من نقص شديد ، مع كل ما نستهلكه من أسلحة وذخائر طوال الوقت ، ونحن عاجزون عن مواجهته ، لأنه يمسك ما يحيط جميعه ، لذا فلطيف أن ننهي اللعبة بشكل مختلف تمامًا ، لو أردنا تجاوز كل هذا

أعطت مستشارة الأمن القومي ظهرها إليه ، وقد أدهشها أن يبدو مرتبكًا على هذا النحو ، في حين تابعه وزير الدفاع في اهتمام ، وهو يواصل

- لن نشغل مدير مخابراتنا الجديد إذن بأمور القتال والحروب ، ولنسعى لاستغلاله فيما هو مؤهل له

تساءل وزير الدفاع في اهتمام :

- وما هو ؟

أدار الرئيس الأمريكي عينيه إليه ، مجيبا :

- البحث عن مستر (X)

انعقد حاجبا وزير الدفاع ، وبدا التوتر على وجه مستشارة الأمن القومي ، وهي تقول في عصبية :

- أليس الأفضل شن تلك الحرب الكولومبية

هتف بها الرئيس ، في عصبية أكثر :

- تلك الزعيمة الغامضة تمكنت من التوصل إليه من قبل ، فلا تحاولا إقناعي أن مخابراتنا ، بكل سمعتها ، لا يمكنها التوصل إليه

قال وزير الدفاع في توتر :

- المشكلة أن جاسوسا واحدا بين صفوفنا ، ينقل إليه فكرة بحثنا عنه ، يكفي لأن يوجه حربا لا قبل لنا بها

غمغمت مستشارة الأمن القومي في حنق :

- وما أكثرهم هذه الأيام

انتفض جسد الرئيس في عنف ، وهو يصرخ :

- لست أقصد رأيكما

حدق فيه بدهشة بالغة ، فعاد يلقي جسده على ظهر ، قائلا :

- سأصدر أوامري للمخابرات ، ببدء عملية البحث عن مستر (X) ، وعليك أنت يا وزير الدفاع ، أن ترتب عملية عسكرية محدودة ، تهجمون على ذلك الـ (لاماس) ، في قلب أحراش (كولومبيا)

ثم شد قامته ، مضيفا في عصبية :

- أريد لهذه العملية أن تنجح ... وفي أسرع وقت ممكن

هل فهمتم ؟ في أسرع وقت ممكن

ولم ينطق أحدهما باعتراض واحد

أو حتى بكلمة وعدًا ..

على الإطلاق

* * *

« عملية كوماندوز مدروسة .. »

نطق الجنرال (يكوب) العبارة ، في صرامة شديدة وهو يجلس مع معاونيه الذين تبادلوا نظرة قلقة ، قبل أن يقول أحدهم

- معذرة يا جنرال ، ولكننا صرفنا كثيرًا في العمليات العسكرية العنيفة في الآونة الأخيرة ، ونخشى أن هذا يستنزف كثيرًا ، دون أن نحقق تقدمًا كبيرًا ، تجاه العراقيين

شد (يكوب) قامته ، قائلًا في صرامة أكثر

- العملية هذه المرة ليست موجهة إلى المقاومة

تبادل الرجال نظرة متوترة ، وقد أدهشهم أن يستخدم مصطلح المقاومة هذا لأول مرة ، وسأله أحدهم متوترًا

- لمن إذن ؟!

انعقد حاجبا (يكوب) الكثيفان ، وبدا شديد العصبية ، وهو يجيب

- لخصومنا .

كان المصطلح عامًا لا يعني في الأحوال العادية أن يشف عن أمر بالتحديد ، إلا أنهم قد فهموا جميعًا ما يعنيه ، فاعتدلوا في مقاعدهم ، وتطلعوا جميعًا إلى الجنرال ، وهو يقول متابعًا

- لقد تعرضنا لكثير من الضربات ، خلال الشهور السابقة ، ووجهت إلى الأسلوب ، الذي لا يليق بنا

وزاد انعقاد حاجبيه ، وهو يميل نحوهم ، مضيفًا بلهجة صارمة

- المصريون

أومئوا جميعًا برؤوسهم متفهمين ، فاعتدل متابعًا ، في شيء من الزهو

- وبحوزته آلاف من الدولارات ، جمع رجالي كمًا من المعلومات ، تشير إلى أن خصومنا يختفون داخل تلك البقعة

قالها ، وهو يستدير ؛ ليرسم دائرة حول منطقة بعينها ، من خريطة (اللاتوج) ، قبل أن يضيف في انفعال :

- كل الخيوط كانت تنتهي هنا .. إنهم يظهرون في أي مكان ثم يختفون دومًا هنا

وعاد يستدير إلى رجاله ، وعيناه تتألقان بشدة ، مضيفًا

- لا .. سنضرب ضربتنا هنا

سأله أحدهم في اهتمام .

- وما كم القوات التي تتوقع مشاركتها في عملية كهذه يا جنرال ؟!

فرد ورقة أمامهم تحوي قائمة بالقوات والمعدات ، فاتسعت عيونهم في دهشة مستنكرة ، وهتف أحدهم

- رباه ! هذا يكفي لشن حرب طاحنة يا جنرال ، وليس عملية كوماندوز محدودة

زمجر الجنرال ، قائلاً :

- إنها عملية كوماندوز مدروسة ، وليست محدودة

هتف آخر

- ولكن هذا كافٍ بهدم المنطقة كلها

شد الجنرال قامته في صرامة ، مجيبًا

- سنفعل ، لو اقتضى الأمر .

تبادل الرجال نظرة أخرى ، قبل أن يقول أحدهم

- وكيف سيمكنك تبرير هذه العملية للمراقبين الدوليين ؟

هز الجنرال كتفيه ، قائلاً

- قد نواجه مقاومة عراقية شرسة وعنيفة ، في اللحظة الأخيرة ، و ..

قاطعه أحد الرجال في توتر ، على الرغم من مخالفة هذا للقواعد العسكرية.

- لن نواجه تلك المقاومة طوال الوقت يا جنرال ، وهذا لن يبدو مبررًا كافيًا

هنا هب الجنرال يصيح في صرامة ، فقال آخر

- ثم سنجد جديدًا لإيجاد أو سنختلق مختلقًا ، أو

بتر عبارته دفعة واحدة ، عندما لاحظ تألق عيني الجنرال ، وتراجع في مقعده متسائلاً ، في حين شد الجنرال قامته أكثر وأكثر ، وهو يقول بصوت مخيف

- وصلنا إلى حد جديد ؟!

ولم يجب أحدهم سؤاله قط

فالواضح أن الجواب كان يعني الكثير

والكثير جدًا ..

* * *

تراجعت (لوتشيا)، عشيقة (باولو لامبس) في غضب، بعد أن أعدت ألغام القناع المتفجرة، حول ثكنات هذه الأخيرة، ثم استندت بظهرها إلى جذع شجرة بدائية ضخمة، وأشعلت سيجارتها، قبل أن تمسك منظارها الآلي، قائلة:

- لو حاول البلطجي* الهجوم، كما تقول المعلومات التي وصلت بـ(باولو)، فسيتحولون إلى رماد قبل أن يبلغوا منتصف المسافة.

زمجر (باولو) في وحشية، وأشعل سيجارته بدوره، وهو يقول:

- لو أقدموا على تلك الحماقة، أريد إبادتهم بالكامل، حتى يكون هذا درسًا قاسيًا لهم، يعلمهم ألا يحشروا أنفسهم في شئون (باولو لامبس) أبدًا

(* البلطجي: مصطلح تستخدمه بعض دول أمريكا اللاتينية عند وصف الأمريكيين)

نفثت دخان سيجارتها في استمتاع، قبل أن تقول:

- ربما كانت المعلومة خاطئة.

هز رأسه نفيًا في قوة، قائلًا:

- مصادري لا تخطئ أبدًا.

اعتدلت، وسحبت نفسًا عميقًا من سيجارتها، قبل أن تتساءل في شيء من الجذل:

- أتعني أنهم قد يهاجمون فعلًا؟!

مط شفتيه، قائلًا:

- لو أنهم حمقى.

اتسعت ابتسامتها، كما لو أنه يخبرها بأمر مفرح، وتألقت في شيء من الاستمتاع، قائلة:

- أخيرًا .. سنمارس بعض النشاط.

رمقها بنظرة جانبية مستنكرة، واستند بمرفقه إلى جذع الشجرة، وبدا شاردًا بعض الوقت، وهو ينفث دخان سيجارته، فأسبلت جفنيها تسأله.

- فيم تفكر؟

جاوبها صمته بعض الوقت ، قبل أن يقول في بطء

ـ لم تقتليهم بالحرب ؟!

هزت كتفيها ، وابتسمت قائلة

ـ من أجل ما نفعله بهم !

هز رأسه نفيًا في بطء ، ونفث دخان سيجارته مرة أخرى ، في بطء شديد ، قبل أن يقول :

ـ إنما نفعله بهم منذ زمن طويل ، وهم يقاتلون دومًا بمقاتلات على أرضهم .

قالت في هدوء

ـ ربما قرروا الانتقال إلى مرحلة أعلى

هزّ رأسه نفيًا مرة أخرى ، وقال

ـ كلا .. ليس هذا هو السبب !

نهضت واقفة .. مستندة إلى مدفعها ، وهي تسأله في اهتمام :

ـ لماذا إذن في رأيك الآن ؟!

انعقد حاجباه مرة أخرى ، وأدار رأسه في بطء ، يتطلع إلى مبنى في منتصف ثكنته ، وهو يحدق في صمت

ـ من أجلهم .

انعقد حاجباها بدورها ، وهي تكرّر

ـ من أجلهم ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول

ـ نعم .. هذا هو التفسير الوحيد ، لما حدث هنا

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهي ترمق ذلك المبنى الصغير في صمت ، قبل أن ترفع فوهة مدفعها الآلي بحركة حادة ، وتجذب إبرة المدفع في صرامة ، قائلة

ـ لماذا نحتفظ بهم إذن ؟

سنقتلهم في خشونة

ـ لأنك تهتمين بهم

قالت في حدة ، محاولة الاندفاع نحو ذلك المبنى

ـ لا تهديدات .. عندما يأتي معها الخطر

انطلقت من حلقه زمجرة غاضبة وحشية، قبل أن يقول بصوت هادر مخيف:

- (باولو لاماس) يفي بتعهداته دومًا، ولن يتغير هذا أبدًا.

بدا عليها الغضب، وهي تهتف:

- كنت على حق إذن... أنت واقع في غرام تلك الصبية الحسناء... إنك تحافظ عليهم من أجلها، ومن

قاطعها بصرخة وحشية هادرة

- إنني أفعل هذا من أجلي

انكمشت أمامه في خوف، فشد قامته، ليبدو كمارد خرافي ضخم، وهو يقول

- وأفعل هذا بمقدار ما يمكنني الإفادة منه

ثم ألقى سيجارته أرضًا، وسحقها بقدمه في قوة، مضيفًا

- أو لو تأكدت من أن الأمريكيين قد نالوا من أجلهم، فسأصنع من أجساد أربعتهم دروعًا لنا، تتلقى موجة الهجوم الأولى

وعندئذ فقط، استعادت (لوكتب) هدوءها وابتسامتها

فما قاله أخيرًا كان يروق لها

تمامًا

* * *

٢. اغتيـــال ..

تحرك موكب ذلك الزعيم الديني العراقي في سرعة متوسطة نسبيًا، وسط مدينة (الفلوجة) في تلك الفترة التي توقفت فيها الاشتباكات، وهدأت النيران..

كان مؤيدو الزعيم ومريدوه يحيطون بالموكب، لحماية زعيمهم بأجسادهم، من أي هجوم أمريكي غادر، وهم يحاولون قطع المسافة التي تفصلهم عن مقره في أسرع وقت ممكن، تفاديًا لأية مشكلات، قد تحدث مع الخصوم، أو مع المحتلين..

وعلى عكس المعتاد، خيم على المنطقة كلها هدوء عجيب..

هدوء تام..

شامل..

مهيب..

ومن خلف النوافذ، أطلت رءوس المدنيين، الذين يتابعون الموكب، ويرصدونه، و..

وفجأة، دوى ذلك الانفجار الرهيب..

كان الموكب يمر إلى جوار رتل من السيارات المتوقفة، عندما انفجرت إحداها دون مقدمات..

وكان الانفجار رهيبًا..

رهيب للغاية..

كتلة هائلة من النيران وثبت إلى السماء..

شظايا تناثرت في كل صوب..

أشلاء تمزقت بلا رحمة..

جدران تهدمت..

وسط هرج ومرج، و..

ولقي الزعيم الديني مصرعه..

وفور الانتهاء في هذا، دوى انفجار آخر..

صيحة غضب هائلة، انطلقت من حلوق مؤيدي الزعيم الديني، الذين ارتفعت فوهات أسلحتهم، لتنطلق رصاصاتهم في عنان السماء..

وتحولت المنطقة كلها فجأة إلى بركان..

وبركان ثائر ، تفجرت منه حمم الغضب ، تلتهم كل شيء

وأي شيء ..

بلا رحمة .

* * *

دق الجنرال (أيكون) سطح مائدة الاجتماعات بقبضته في قوة ، وهو يقول لضباطه الملتفين حوله

- الآن صدر القرار الأخير أيها السادة .. سنضرب ضربتنا فجر الغد

هتف أحدهم في دهشة .

- بهذه السرعة !

تألقت عينا الجنرال .. وهو يعتدل قائلا

- لا يمكننا أن نسكت .. بعد أن فعلوا هذا!

ثم رفع سبابته ، مضيفا في حزم :

- خاصة وأننا نقاتل من أجل حرية ورفاهية الشعب العراقي

تبادل الرجال نظرة ، حملت لمحة سخرية خفية ، قبل أن يقول أحدهم

- فليكن يا جنرال ، وواضح أنه لا فائدة من مناقشة الأمر ، ولنبدأ إذن بمناقشة خطة الهجوم

قبل حتى أن يتم عبارته .. كان الجنرال يقول

- ستبدأ الهجوم بطائرات الأباتشي .. ست طائرات كاملة التسليح ، ستهاجم من ثلاثة محاور ، وستمطر المنطقة غالب بأسلحتها ، مع لحظات الفجر الأولى ، وعلى مدى ساعات ثلاث ، بحيث لا تسمح لأحد بفرصة الفرار .. أو اتخاذ أية احتياطات ، ومع القصف العنيف ، ستبدأ وحدات الكوماندوز في الهجوم ، من خمسة محاور مختلفة ، في حين ستقوم وحدة من المدرعات بمحاصرة المنطقة

قال أحد الضباط في اهتمام :

- سنحرص على أن تتضمن أوامرهم السماح للأطفال والنساء والشيب بالخروج ، و ...

قاطعه الجنرال بصرامة خشنة

- لا أحد سيخرج من المنطقة

بهت الضباط لقوله ، وغمغم أحدهم مذعوراً

- حتى النساء والأطفال ؟

تحجرت عينا الجنرال ، وهو يمسك بعصاه ، قائلا بمنتهى الصرامة :

- لا أحد سيغادر المنطقة كلها حيًّا ، فمع التكتيك التي سنواجهها ، قد يكون خروج طفل صغير هو طرف الخيط ، لفرار خصومنا جميعهم ... بهذا لن يخفى على أحد

سرى توتر شديد في أجساد الضباط ، الذين بدت لهم عمليتهم شبه مذبحة رهيبة ، أو بمجزرة من مجازر التتار القدامى(*) ، وراحوا يتبادلون نظرة عصبية ، والجنرال يتابع بلهجته العجيبة

- وإن خصومنا بارعون في التلصص ، فالخطة كلها ستتم وضعها دفعة واحدة ، دون أي تغيير أو تعديل ، مرحلة كلها ، حتى لو صدرت الأوامر بعكس هذا ... المراحل كلها ، ويلتزم بها الكل ، وسيتم إيقاف كل الاتصالات بخلاف نوعيها مع بدء المرحلة الأولى ، بحيث تسير العملية كلها في آلية تامة

قال أحد الضباط معترضا :

(*) التتار : اسم عام يطلق على شعوب القبائل المتحدرة من (السوبا رؤ أوروبا) [illegible] في القرن الثالث عشر ، ويرجع [illegible] الأصليون جاءوا من شرق وسط آسيا ، أو من وسط (منغوليا) وقد سيطروا على (روسيا) ، بعد انتصار مواجهتهم [illegible]

- لعدم الاتصالات خلال القتال ، أمر يصعب كثيرا يا سيدي ، فتطورات الأمور قد تستلزم إحداث تغيرات حتمية ، في مجرى سير الأمور

أشار الجنرال بسبابته ، قائلا :

- هذا بالضبط ما أريد تلافيه هذه المرة ، فالخصوم قد ينجحون في الاستيلاء على وحدة اتصالات ، وبقدرتهم المدهشة على التلصص ، يصدرون بعض الأوامر المربكة لقيادات الهجوم

تبادل الضباط نظرة أخرى متوترة ، وغمغم أحدهم :

- لن تكون المواجهة سهلة والحال هكذا

قال الجنرال في شراسة

- لا أريدها سهلة

ثم شد قامته ، مضيفا :

- أريدها ساحقة

سطحه، وعيناه تتألقان على نحو عجيب

نحو يوحي بأنه لا يسعى للإيقاع بخصومه فحسب

ولكن إلى الثأر..

الثأر الشخصي،

والوحشي..

* * *

على الرغم من الصدمة والقوة اللتين بدت واضحتين على ذلك الرجل، الذي يجلس داخل حجرة الاتصالات المؤمنة، إلا أنه بدا أشبه بفأر مرتجف مذعور، وهو يواجه تلك الشاشة المسطحة الكبيرة، التي تحمل صورة مستر (X)، الذي يقول في شراسة:

- ماذا تعني بأنكم تعجزون عن إيجادها؟! المفترض أنك أقوى رجال العصابات، في (ريو دي جانيرو)، ولديك جيش هائل من المعاونين، وهي مجرد امرأة، لم تتجاوز الحدود بعد لتهرب تلك منكم؟!

قلب الضخم كفيه في حيرة، وهو يقول:

- لست أدري كيف حدث هذا أيها الزعيم؟! لقد تبخرت المدينة كلها، وأطلقت عيوني في كل مكان، و..

قاطعه مستر (X)، في صرامة قاسية:

- لا أريد أعذارًا أو تبريرات.. أريد نتائج إيجابية فقط.. أنت تعرف كم أمقت الفشل

استعاد ذهن الضخم مشهد المحامي الصريع، الذي احترقت أوراقه، وشعر بقشعريرة باردة تسري في كيانه، وهو يجيب:

- لا فشل أيها الزعيم.. إنها مسألة وقت فحسب

رمقه مستر (X)، قائلًا:

- الوقت ليس له ثمنه يا هذا

غمغم الرجل في توتر:

- أعلم هذا أيها الزعيم.. أعلم هذا

كان يهم بإضافة شيء ما، لولا أن سبقه مستر (X) فجأة:

- اصمت يا هذا

كانت تلك الأجهزة الدقيقة، التي أحاط بها حجرات الصالات المؤمّنة، قد التقطت فيه إشارة ما

إشارة توحي بأن هناك شخصاً ما، يتسلل إلى حجرة الصالات

المؤمّنة

أطل مستر (X) القابع بمنتهى الصرامة، وهو يشير إلى الشاشة الكبيرة، في ركن الحجرة، فانتقل رجل المخابرات المسلح بمسدسه بحركة آلية، ووثب من مقعده، متجهاً إليها، والأجهزة تشير إلى أن ذلك الشخص يقترب

ويقترب.

ويقترب

وتحفزت حواس رجل المخابرات

وتوترت سبابته على زناد مسدسه

و

وفجأة هبط ذلك الجسم من المدخنة

هبط مرتطماً بقاعها، على نحو مباغت، لم يمنح ذلك الضخم فرصة التفكير، وإنما أدار فوهة مسدسه في سرعة، وراح يطلق النار

ويطلق

ويطلق

ست رصاصات، أطلقها كلها نحو ذلك الجسم، قبل أن ينتبه فجأة إلى أنه مجرد وسادة قديمة، حولتها رصاصاته إلى قطع متناثرة من الريش المتطاير في كل مكان

ثم فجأة، هبط داخل المدفأة القديمة جسم آخر

جسم لم يكد يبلغ قاعها، حتى تحول فجأة إلى كتلة من النشاط والحيوية، فوثب خارجها، وركل مسدس رجل المخابرات الضخم في خفة، أمام أجهزة رصد مستر (X)، الذي هتف في مقت

- (أدهم)

مع قوله، وثبت (ف) وثبة أخرى، تحركت معها قدماه معاً، فركلت ذلك الضخم في أنفه وفكه ركلتين متعاقبتين

سريعتين ، دفعته إلى الخلف في عنف ، قبل أن يتماسك ، ويصرخ في غضب .

- إني أكرهك

تحركت (منى) في خفة ، وهي تقول في سخرية :

- نعم ... أعرف .

استل من حزامه خنجرًا معقوفًا بحركة حادة ، وهو يقول :

- كم سيسعدني أن أمزقك إربًا ، أمام عيني أدهم مباشرة .

مطت شفتيها ، وهزت كتفيها ، قائلة :

- يمكنك أن تحاول .

أطلق صرخة وحشية ، وهو ينقض عليها بجسده الضخم ، على نحو جعل المشهد أشبه بدب ينقض على غزال رقيق ...

ولكن الغزال تفادى الانقضاضة في رشاقة مدهشة ، ثم وثب بإحدى قدميه فوق ذلك المقعد ، في منتصف الحجرة ، واستخدمه كنقطة ارتكاز لوثبة أخرى رائعة ، جعلته يتجاوز الدب ، ثم ركله في ظهره ركلة ، دفعته ليسقط على وجهه ...

وعندما حاول الدب النهوض ، استقبله الغزال بركلة أخرى في أنفه ، تفجرت معه الدماء منها ، وأعاقت رؤيته ، وهو يصرخ :

- لعنة الله ...

أخرسته ركلة ثالثة في أسنانه ، ورابعة في عنقه ...

في منتصف عنقه مباشرة ...

ومع الركلة ، صدرت فرقعة محدودة ...

فرقعة انقصمت معها عنق ذلك الضخم ...

وامتقع وجهه ...

وتشنجت أطرافه ...

وتهاوى ، محدقًا في الشابة الضئيلة أمامه ، في مزيج من الدهشة والاستنكار ، في حين جلست هي على المقعد في استرخاء ، قائلة :

- هيا ... اسقط .

مع نهاية قولها صدرت من العملاق حشرجة مخيفة ، وارتفعت يداه تضربان الهواء في استماتة ، بحثاً عن الهواء ، الذي افتقده مع تحطم حنجرته وراحت عيناه تتسعان

وتتسعان ،

وتتسعان

وفي مقت بلا حدود ، اتجه نحو (كم) التي استرخت تماماً في مقعدها ، ترقبه باستهتار ،،

وعلى مسافة متر واحد منها ، سقط العملاق على ركبتيه ، وانطلقت منه حشرجة أخيرة ..

ثم هوى

هوى جثة هامدة ، تحت قدميها ، فقال مستر (X) في غلظة ، حاول أن يخفي بها انبهاره بما حدث أمام عينيه

ـ لماذا قتلته ؟!

هزت كتفيها بلا مبالاة ، وهي تقول

ـ إنك لم تتم صفقتنا بعد .

ولم ينطق مستر (X) بحرف واحد

لم يجد الكلمات المناسبة ، للتعبير عما يدور في أعماقه ، في تلك اللحظة العجيبة

فالواقع ، أنه صار مبهوراً بتلك الصهباء الحسناء تماماً ، والتي راحت تسترخي في مقعدها ، كما لو أنها تستمتع بما يحدث ، وهي تقول :

ـ الواقع أنني أردت أن أثبت حقيقة واحدة

سلفاً في الصفقة :

ـ وما هي ؟!

رفعت سبابتها أمام وجهها المبتسم ، قائلة

ـ أنه لا يوجد سوى سبيل واحد للتعامل بيننا

ثم مالت نحو الشاشة ، مضيفة .

ـ الاحترام المتبادل

انعقد حاجبا الرجل بشدة ، وراح يتأملها عبر منظومته الراصدة في إمعان ، وقام بتكبير وجهها ، حتى صار يملأ شاشته كلها ، قبل أن يقول :

- ماذا تريدين بالضبط يا ([illegible]) ؟!

هزت كتفيها ، قائلة

- كل ما أريده هو أن أسمعك ما دفعت ثمنه

ثم اعتدلت على المقعد ، مضيفة في حزم

- أريد الاتصال بـ (الأساس)

صمت مستر (X) بضع لحظات ، وهو يدرس الأمر في ذهنه جيدًا ، قبل أن يقول في حزم

- وما أدراني أنها ليست خدعة جديدة ؟

كانت ضحكة ساخرة في عينيها ، وهي تقول

- ولماذا ألجأ إليها في رأيك ؟!

بدا سؤالها منطقيًا تمامًا ، مع كل ما تبديه من جرأة ومهارة إلا إنه لاذ بالصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول في بطء

- تريدين السفر إلى (كولومبيا) إذن

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت

- وسأعود مع المصنع ، التي دفعت ثمنها ، و

قاطعها في حزم

- فليكن

انعقدت في اهتمام ، متسائلة

- هل توافق ؟!

أجابها في حزم

- مع شرط واحد

عقدت إلى مكتبه ، متعجبة في حذر

- وما هو ؟

مال نحو الشاشة ، وهو يجيب في صرامة

- أريد معرفة ... عن (أدهم) ... (أدهم صبري)

وانعقد حاجبا (تيا)

بشدة

* * *

ثم بدأ أذان الفجر ينطلق ، في مدينة (الفلوجة) حتى
بدأ الهجوم

وبمنتهى العنف

والشراسة

والوحشية

طائرات الأباتشي انطلقت كالوحوش المفترسة ، على تلك
المنطقة من المدينة ، وراحت تمطرها بصواريخها ، دون سابق
إنذار

وانطلقت المدرعات الأمريكية تحاصر منطقة الهجوم ، وتطلق
النيران على كل من يحاول الفرار منها ، من رجال

أو نساء

أو أطفال

حتى الشيوخ والعجائز ، لم ترحمهم الرصاصات والقنابل
الأمريكية .

وأصبحت المدينة كلها بحالة من الذعر ، لا مثيل لها

فلأول مرة ، أدرك الجميع أنهم ليسوا أمام مواجهة عادية

بل حرب ..

حرب إبادة .

شاملة

حرب تعلن وطيسها ، في سرعة ، والنيران تنتشر في
المنطقة المنكوبة ..

وتنتشر

وتنتشر ..

ووسط صراخ النساء والأطفال ، خرجت مجموعة من
رجال المقاومة البواسل من مكامنها

وراحت تقاتل

وتناضل

وتكافح

ومع القنابل والصواريخ ، التي تنفجر طوال الوقت
بلا انقطاع ، بدأ هجوم قوات الكوماندوز .

أعداد هائلة منهم رفعت نهايتهم تلك المنطقة

وبدأت مذبحة جديدة

ففي هذا الشأن كانت لديهم أوامر محدودة

لا أسرى ..

أو أحياء ..

لذا فقد كانت نيران رجال الكوماندوز تحصد كل من تلتقي به، دون رحمة أو شفقة

رجال

شيوخ

نساء

أطفال

لا أحد بات مؤمنًا ..

أو حتى أدنى أمل بالنجاة .

ومن موقعه، كان الجنرال (أيكوس) يتابع كل ما يحدث، على شاشة خاصة .

وعلى الرغم من المذابح الرهيبة، التي يراها أمامه، كانت ملامحه باردة .

جامدة .

خاوية .

لم تكن أشبه بالملامح البشرية

بل بملامح وحش ..

وحش كاسر، تجرد من كل لمحة من الآدمية والإنسانية

كانت صرخات القتلى تبلغه

وتوسلاتهم

وصرخاتهم

وآلامهم

ولكن ذرة واحدة من الرحمة لم تتحرك في أعماقه

ولمحة واحدة من الشفقة لم تبد في عينيه

ففي أعمق أعماقه، كان يدرك أن هذا انتقامه

لتكلفه الشخصي

الإذلال الذي عاناه، أمام ملك الإسرائيلي، بسبب ما لحقه به من اتهامهم بالتخاذل، كان يحرق كيانه طوال الوقت

لحظة سوداء في تاريخه الطويل

لحظة ضعف، تمنى لو أن يمحوها من ذاكرته

ومن الوجود كله

إلى الأبد

ولأن المعلومات التي وردته، كانت تؤكد له أن خصومه هناك، في تلك المنطقة، فقد كان يرغب في سحقهم سحقًا

بلا رحمة

أو هوادة

أو إبطاء

لذا فكل ما يحدث لم يبد له كمذبحة

أو مجزرة

بل بدا له أشبه بعيد ..

عيد انتصاره

وثأره

ومستعيدًا كرامته الجريحة

أهم كل الثأر

على الإطلاق

* * *

« إنها أكبر مجزرة، في تاريخ الحرب كلها »

نطق أحد رجال (إيتان كوهين) العبارة، في بطء شديد وهو يتطلع إلى رئيسه، الذي تألقت عيناه، وهو يتراجع في مقعده، قائلاً:

- لقد فعلها ذلك الجنرال الأحمق

أومأ الرجل برأسه بحذر، وقال:

- وبأعنف وسيلة ممكنة

تألقت عينا رجل المخابرات الإسرائيلي أكثر، وهو ينهض من مقعده، ويتجه نحو النافذة، قائلاً:

- عظيم

مع نهاية قولها صدرت من الصقر حشرجة مخيفة ، ورنعت يداه تضغطان الهواء في مشقة ، بحثا عن الهواء ، الذي افتقده مع تحطم حنجرته وراحت عيناه تتسعان

وتتسعان ..

وتتسعان

وفي مقت بلا حدود ، اتجه نحو (ن) التي استرخت تماما في مقعدها ، تراقبه باستهتار ..

وعلى مسافة متر واحد منها ، سقط الصقر على ركبتيه ، وانطلقت منه حشرجة أخيرة ..

ثم هوى

هوى جثة هامدة ، تحت قدميها ، فقال مستر (X) في غلظة ، حاول أن يخفي بها انبهاره بما حدث أمام عينيه

- لماذا قتلته ؟!

هزت كتفيها بلا مبالاة ، وهي تقول

- إنه لم يتمم صفقتنا بعد .

ولم ينطق مستر (X) بحرف واحد

لم يجد الكلمات المناسبة ، للتعبير عما يدور في أعماقه ، في تلك اللحظة العجيبة

فالواقع ، أنه صار مبهورا بتلك الصهباء الحسناء تماما ، ولكنه أدرك استرخاءها في مقعدها ، كما لو أنها تستمتع بما يحدث ، وهي تقول :

- الواقع أنني أردت أن أثبت حقيقة واحدة

سألها في خشونة :

- وما هي ؟!

رفعت سبابتها أمام وجهها المبتسم ، قائلة

- إنه لا يوجد سوى سبيل واحد للتعامل معي

ثم مالت نحو الشاشة ، مضيفة .

- الاحترام المتبادل

انعقد حاجبا الرجل بشدة ، وراح يتأملها عبر عدسته الراصدة في إمعان ، وظل يتأمل وجهها ، حتى صار يملأ شاشته كلها ، قبل أن يقول :

- ماذا تريدين بالضبط يا (تب) ؟!

هزت كتفيها ، قائلة

- كل ما أريده هو أن أسمعك ما دفعت ثمنه

ثم اعتدلت على المقعد ، مضيفة في حزم

- أريد الاتصال بـ (الماس)

صمت مستر (X) بضع لحظات ، وهو يدرس الأمر في ذهنه جيدًا ، قبل أن يقول في حزم

- وما أدراني أنها ليست خدعة جديدة ؟

تألقت ضحكة ساخرة في عينيها ، وهي تقول

- ولماذا نلجأ إليها في رأيك ؟!

بدا سؤالها منطقيًا تمامًا ، مع كل ما تبديه من جرأة ومهارة إلا إنه لاذ بالصمت بضع لحظات أخرى ، قبل أن يقول في بطء

- تريدين السفر إلى (كولومبيا) إذن

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت

- وسأعود مع المصنع ، الذي دفعت ثمنها ، و

أطلقتها في حزم

- فليكن

اعتدلت في اهتمام ، متسائلة

- هل توافق ؟!

أجابها في حزم

- مع شرط واحد

تلفتت إليه متلهفة ، مغمغمة في حذر

- وما هو ؟

مال نحو الشاشة ، وهو يجيب في صرامة

- أريد معرفة سر (أدهم) ... (أدهم صبري)

وانعقد حاجبا (تانيا)

بشدة

* * *

ثم بدأ أذان الفجر ينطلق .. في مدينـة (الفلوجة) حتى بدأ الهجوم

وبمنتهى العنف

والشراسة

والوحشية

طائرات الأباتشي انقضت كالوحوش المفترسة ، على تلك المنطقة من المدينة ، وراحت تمطرها بصواريخها ، دون سابق إنذار

وانطلقت المدرعات الأمريكية تحاصر منطقة الهجوم ، وتطلق النيران على كل من يحاول الفرار منها ، من رجال

أو نساء

أو أطفال

حتى الشيوخ والعجائز ، لم ترحمهم الرصاصات والقنابل الأمريكية .

وأصبحت المدينة كلها بحالة من الذعر ، لا مثيل لها

فلأول مرة أدرك الجميع أنهم ليسوا أمام مواجهة عادية

بل حرب ..

حرب إبادة .

شاملة

حرب تحرق وطيسها ، في سرعة والنيران تنتشر في المنطقة المنكوبة ..

وتنتشر

وتنتشر ..

ووسط صراخ النساء والأطفال ، خرجت مجموعة من رجال المقاومة الباسل من مكامنها

وراحت تقاتل

وتناضل

وتدافع

ومع القنابل والصواريخ ، التي تنفجر طوال الوقت بلا انقطاع ، بدأ هجوم قوات الكوماندوز .

أعداد هائلة منهم راحت تهاجم تلك المنطقة

وبدأت مذبحة جديدة

ففي هذا الشأن كانت لديهم أوامر محدودة

لا أسرى .

أو أحياء ..

لذا فقد كانت نيران رجال الكوماندوز تحصد كل من تلتقي به ، دون رحمة أو شفقة

رجال

شيوخ

نساء

أطفال

لا أحد بات مؤهلا ..

أو شبه أدنى أمل بالنجاة .

ومن موقعه ، كان الجنرال (أيكوس) يتابع كل ما يحدث ، على شاشة خاصة .

وعلى الرغم من المذابح الرهيبة ، التي يراها أمامه ، كانت ملامحه باردة .

جامدة .

خاوية .

لم تكن أشبه أبدا بالملامح البشرية

بل بملامح وحش ..

وحش كاسر ، تجرد من كل لمحة من الآدمية والإنسانية

كانت صرخات القتلى تبلغه

وتوسلاتهم

وعذابهم

وآلامهم

ولكن ذرة واحدة من الرحمة لم تتحرك في أعماقه

ولمحة واحدة من الشفقة لم تبرز في قلبه

ففي أعمق أعماقه ، كان يدرك أن هذا انتقامه

لكرامته الشخصية

الإذلال الذي عاناه ، بعلم شك الإسرائيلي ، بسبب ما لحقه به من استهزاء بالثعلب ، كان يحرق كيانه طوال الوقت

لحظة سوداء في تاريخه الطويل

لحظة ضعف ، تمنى لو أن يمحوها من ذاكرته

ومن الوجود كله

إلى الأبد

ولأن المعلومات التي ورثته ، كانت تؤكد له أن خصومه هناك ، في تلك المنطقة ، فقد كان يرغب في سحقهم سحقا

بلا رحمة

أو هوادة

أو إبطاء

لأن كل ما يحدث لم يبد له كهزيمة

أو مجزرة

بل بدا له أشبه بعيد ..

عيد انتصاره

وثأره

واستعادة كرامته الجريحة

مهما كان الثمن

على الإطلاق

* * *

« إنها أكبر مجزرة ، في تاريخ الحرب كلها »

نطق أحد رجال (إيتن كوهين) العبارة ، في بطء شديد وهو يتطلع إلى رئيسه ، الذي تألقت عيناه ، وهو يتراجع في مقعده ، قائلا :

– لقد فعلها ذلك الجنرال الأحمق

أومأ الرجل برأسه بعنف ، وقال :

– وبأعنف وسيلة ممكنة

تألقت عينا رجل المخابرات الإسرائيلي أكثر ، وهو ينهض من مقعده ، ويتجه نحو النافذة ، قائلا :

– عظيم

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة جذلة، وهو يضيف:

- لنعمل ما في الأمر .. هو أنه قد فعلها، بناء على المعلومات، التي سربناها إليه عمدًا

تردد أحد الرجال لحظة، ثم لم يلبث أن حسم أمره، وتساءل:

- ولكن لماذا يا سيدي؟! لماذا سمحت بإيهامه بأن خصومه يختفون هناك، في تلك المنطقة

ابتسم (إيلي) في خبث، وهو يجيب:

- حتى يفعل ما فعله

وصمت لحظة، بدا معها أنه سيكتفي بالجواب، إلا أنه لم يلبث أن تابع بحدة، موضحًا:

- بنعمة إصابة، ستنسبه المعلومة بالجنون، وستدفعه إلى التقدم غاضبًا للعمل .. لنتقدم سينفذ فيه كل ما يوقعه، فيرسل جنوده وطائراته ومدرعاته، فترتكب أبشع مجزرة

تساءل أحد الرجال في اهتمام:

- ثم؟!

تابع (إيلي)، وكأنه يجيبه:

- وتصبح نقطة سوداء داكنة في تاريخه، سواء في الولايات المتحدة، أو هنا

وصمت لحظة، قبل أن يضيف في مقت:

- الأمر هنا ...

تطلع إليه الرجال، في انتباه متسائل، فتابع قائلًا:

- الجنرال (الباتون) قرر التخلي عنه، والوقوف في وجه مصالح (إسرائيل)، والتم تحتوي كيف احتك التعامل مع مثل هذه الأمور، ومن هي ... الأولى في هذا المضمار

وانعقد حاجباه على نحو مخيف، وهو يضيف:

- كل من يقف في طريق (إسرائيل) الكبرى، لابد وأن يزاح عن الطريق

تسلل الهلع معهم، وجيب مشبطه، وتركه يرتد بصوته المعدني، وهو يلوح في غلظة

- إزاحته عن الطريق لن تمثل مشكلة

أجابه معاونه في خفوت :

ـ الجنرال (أيكوب) شخصيًا .

استدار إليه المدير ، يسأله في ضيق

ـ وما مبرره في هذا ؟!

أجابه المعاون في سرعة .

ـ ظاهريًا ، كانت حملة تفتيشية ضد مجموعة من المقاومة ، اعتبرها مسئولة عن اغتيال ذلك الزعيم القبلي

سأله المدير في اهتمام :

ـ وباطنيًا ؟

يجيب المعاون

ـ معلوماتنا تقول إنه كان يسعى خلف ذلك المجهول ، الذي قتل ناصيف مع رفاقه

انعقد حاجبا المدير في غضب ، وهو يقول مستنكرًا

ـ أكل هذا للانتقام فحسب ؟!

قال المعاون .

ـ أو للإيقاع بهم

انعقد حاجبا المدير في تفكير عميق بعض الوقت ، قبل أن يقول

ـ ومن تراه أنهم هناك ؟!

هز المعاون كتفيه ، وهو يجيب :

ـ من المؤكد أنه قد تلقى بعض المعلومات ، في هذا الشأن

زاد انعقاد حاجبي المدير وهو يقفز بحنق أكثر ، في طريقه إلى مكتبه ، الذي لم يكد يستقر خلفه حتى تساءل بكل الاهتمام

ـ كيف كانت المطاردة ، في المنطقة المحظورة

أجابه معاونه في سرعة وحسم

ـ شرسة

سأله المدير ، واهتمامه يتزايد :

ـ وهل كانت متميزة ؟!

استوعب الرجل على الفور ما يعنيه الوزير ، فأجاب في سرعة وحماس

- لا يوجد ما يدل على أن ذلك الفريق كان هناك

انعقد حاجبا المدير بشدة هذه المرة، وتراجع في مقعده، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه، وهو يفكر بضع لحظات، قبل أن يدير عينيه إلى معاونه، قائلاً في حزم متوتر:

- إنك أمام لعبة يا رجل.. لعبة قذرة، تمت إدارتها في براعة، لإشعال النيران في هدف بعينه

سأله معاونه في قلق:

- أي هدف؟

صمت المدير لحظة، ثم أجاب بمنتهى الحزم:

- (أيكون)

وانتفض جسد المعاون

بعنف

* * *

« ما حدث لا يمكن السكوت عليه أبدًا »

حمل صوت رجل المخابرات الأردني (وجيه الهاشمي) كل الغضب المشتعل في أعماقه، وهو يهتف بالعبارة،

داخل مقر سري خاص، في إحدى المدن العربية، فأشار إليه المغربي (محمد بن علي)، قائلاً بنفس العصبية:

- الحقير (أيكون) هذا يحتاج إلى صفعة أخرى

رفع العميل السوري (أكرم كيلاني) رأسه، قائلاً في صرامة:

- لست أظن أنه من الممكن أن نكتفي بصفعة هذه المرة

لوّح (وجيه) بقبضته، هاتفًا:

- بالنسبة لي، أريد أن أسحقه سحقًا.. لقد تجرد ذلك الوغد الحقير، من كل لمحة من الإنسانية والرحمة، وهو يذبح الأطفال والنساء، ويريق الدم العربي في نهر، دون شفقة أو رحمة

صاح (محمد):

- لابد وأن يدفع الثمن.. لابد وأن يدفع ثمن كل قطرة دم عربي، أريقت في مذبحته الحقيرة

أشار إليهما (أكرم) بالصمت، وهو يقول في حزم:

- تمالكا نفسيكما.. كلنا غاضبون، ثائرون لما حدث، ولكن تذكروا القاعدة الذهبية: من يفقد أعصابه، يخسر معركته

لابد وأن نتماسك ، ونتآزر ، ونمحو مؤقتاً مشاعرنا الشخصية جانباً ، ونحن ندرس الموقف ، ونتخذ قراراتنا القادمة

تبادل (وجيه) و(محمد) نظرة متوترة ، ثم تراجعا في مرارة ، والأول يغمغم في خفوت منفعل:

- ولكن لابد أن نفعل شيئاً

التفت (أكرم) نحوه في عمق ، قبل أن يقول:

- الأمر لن يكون سهلاً أو بسيطاً هذه المرة ... مع انعدام ثقة الأمن الشديدة العنيفة التي وصفها الجنرال (ايكسون) ، تجعلنا لا نرد الفعل التقليدي ... وسنكون بحاجة إلى الكثير من المعلومات ، قبل أن نضع خطتنا ... وأن نتروى في تنفيذها

وصمت لحظة ، ثم أضاف في احترام:

- هذا ما علمنا إياه أستاذنا

لم يكد يأتي على ذكر الأستاذ ، حتى ظهرت المهابة ، وخطوطها العريضة ، على ملامح الرجلين ، وتبادلا نظرة صامتة مفعمة بالاحترام والتقدير ، قبل أن يغمغم المغربي:

- ترى ما رأيه فيما حدث ؟!

أجابه (أكرم) في سرعة:

- وهل تحتاج إلى جواب لسؤالك هذا ؟!

إنه أكثرنا حزناً ومرارة حتماً ، ألا تدرك كم يمقت العنف والتدمير ، على الرغم من أنه يحب قيمه دوماً

تبادل الرجلان نظرة صامتة أخرى ، قبل أن يهمس المغربي ، وكأنه يخشى أن يرفع صوته ، فيفسد مهابة الموقف:

- إنك لم تره منذ الصباح

بدا التأثر واضحاً ، في ملامح (أكرم) وصوته ، وهو يقول:

- لعله ينشد بعض الوحدة ، ليفرغ أحزانه

وصمت لحظة ، ثم أضاف في خفوت:

- ومرارته .

في نفس اللحظة ، التي نطق فيها عبارته ، كان هو يجلس على بعد أمتار من ثلاثتهم ، داخل حجرة مغلقة

حجرة بسيطة ، حوت فراشاً صغيراً ، ومرآة ، وشماعة ملابس وصندوق ذخيرة .

وفي مكتبه، كان يجلس

كان رأسه مستندا إلى لوحة مقعده الخلفي، وعيناه مغلقتان، والحزن يرسم أبلغ صورة على ملامحه

لم يكن باستطاعته أبدا أن يتجاوز ما حدث

وفي أعمق أعماقه كان يسمع صراخ الشيوخ

والنساء..

والأطفال

صراخ يطالبه بالنهوض..

والانتقام

والثـأر..

صراخ لم يتوقف عن التردد في أعمق أعماقه، منذ فترة ليست بالقصيرة.

فترة لم تبتسم خلالها شفتاه

أبدا

وفي ذهنه، وعلى الرغم من آلامه ومرارته، راحت الذكريات تتداعى

وتتداعى

وتتداعى..

جزيرة الزعيمة في قلب المحيط

القتال العنيف.

رصاصات

انفجارات

دمـاء

ثم يرتفع التفجير الذاتي

ومصرع الرفاق

كل الرفاق

(منى)

(قدري)

(شريف)

(رمزي)

وبعدهم ابنه .. (آدم) ..

كلهم تلقوا مصرعهم أمام عينيه

وتمزق قلبه

تمزق كما لم يتمزق من قبل ..

وانتقل كالأسد ..

ولحظة الانفجار تقترب .

وتقترب

وتقترب ..

وسمع صوت يجب يزلزل من خلفه

ومن هنا .. ؟

صك مسامعه فجأة صوت تلك الصبية المسماه (نيا) ،

فالتفت خلفه ، ورآها تبرز من مخبأ سري في الجدار ،

وتهتف به

ـ أسرع .. هذه الممرات محصنة .. ستحمينا من الانفجار

لم يدر لحظة ، وثب إليها يومها

لماذا سعى للنجاة ، بعد أن فقد كل من يحب ؟!

ولكنه فعلها

غريزة البقاء في أعماقه ، جعلته يثب إلى ذلك الممر السري الذي أغلقت (نيا) مدخله بضغطة زر ..

ودوى الانفجار

انفجار هائل ، أطاح بجزيرة الزعيمة ، وارتج معه ذلك الممر السري في عنف

بل ومنتهى العنف ..

كان يعدو مع الصبية عبره ، عندما تحقق تزلزلهما بلهب الانفجار ، وشعر بموجة حارة كاللهيب ، ترتطم بجسده ، وتقذفه أمامه بضعة أمتار ، قبل أن يرتطم بجدار معدني

ويسقط

آخر ما رآه يومئذ هو (نيا) وهي تعدو نحوه ، والحرارة تتصاعد

وتتصاعد

وتتصاعد

ثم قلب وجهه بحدة ..

لـ ..

« مطرقة يا أستاذ »

تعلق (أكرم) العبارة في خفوت حذر ، فاتسع (أدهم) عينيه في بطء ، واستدار إليه بحسم مضطرب ، جعلته يتابع

ـ إنك لم تخرج إليه منذ الصباح ، تشعر بالقلق ، و

لم يستطع أن يتم عبارته ، وهو يتطلع في مهابة إلى أستاذه ، الذي صمت عيناه حزنا بلا حدود ، والذي ينهض متأبطا مسدسه الآلي ، وهو يقول

ـ أعلم أنكم تتشممون الانتقام

قال (أكرم) في مرارة

ـ لن يطيب لنا العيش دونه

تطلع إليه (أدهم) بصمت لحظات في صمت ، قبل أن يقول :

ـ الإسرائيليون أولا ، وبعدها سيدفع (ليكوف) الثمن

انعقد حاجبا (أكرم) ، وهو يغمغم

ـ الإسرائيليون ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابا في بطء ، قبل أن يقول في مقت

ـ نعم .. إنهم وراء كل عذاب عرفه البشر ، في العصر الحديث ، ووحدهم يسعون لإراقة الدم العربي ، في كل لحظة من ليل أو نهار

قال (أكرم) في ضيق

ـ ولكن الجنرال (ليكوف) ، هو الذي

قاطعه (أدهم) في صرامة :

ـ (ليكوف) هو الذي ضغط زر التفجير ، لكن هم الذين دفعوه إلى هذا ، وهو يتصور أنه قراره وحده

سأله السوري في اهتمام :

ـ وكيف يا أستاذ ؟!

أجاب في حزم :

ـ المعلومات .. لقد أقنعوه أننا هناك .. فهاجم

كانت كلماته مقتضبة ، ولكن السوري استوعبها

وفهمها ..

وأدركها ..

وفي غضب ، انعقد حاجباه ، وغمغم :

- يا للأوغاد

أشار إليه (أدهم) بمغادرة الحجرة ، ثم لحق به مع العجوز والأرمني ، وقال للثلاثة في حزم ، يوحي بأنه قد اتخذ قرارًا حاسمًا :

- الكل يتوقع الآن أن نوجه انتباهنا إلى (بيكوس) ، جراء ما فعله وسيتم اتخاذ كافة الاحتياطات ، لمنعنا من الوصول إليه

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- ولكننا لن نسعى حتى للوصول إليه

ثم شد قامته ، مستطردًا :

- سنوجه ضربتنا إلى هدف آخر تمامًا

هتف الأرمني في حماس

- الإسرائيليون

ولم ينبس (أدهم) ببنت شفة ..

ولكن ملامحه أوحت بالكثير ..

الكثير جدًا

* * *

حمل صوت مستر (X) كل حزمه وصرامته وغلظته وهو يقول للصهيونية الحسناء (تي) ، عبر شاشة الاتصال

- لقد أفلت (أدهم صبري) ، من الطوق جزيرة الزعيمة

زفرت (تي) في ضجر ، وهي تقول

- لقد رويت هذه القصة أكثر من ثلاث مرات ، خلال اليومين الماضيين .. ألا تمل سماعها أبدًا ؟!

أجابها بمنتهى الصرامة

- أريد سماعها مرة أخيرة

كان الضجر والملل يملأان كيانها كله، من تكرار القصة أكثر من مرة، إلا أنها التقطت نفسًا عميقًا، وقالت:

- لقد أنقذته في اللحظة الأخيرة، ونقلته إلى شبكة خاصة، من ممرات قوية متصلة، أعدها الزعيم، كوسيلة أخيرة للهروب، إذا ما تأزمت الأمور، وعندما دوى الانفجار، كان من العنف، حتى إنه كاد يحطم جدران تلك الممرات

وصمتت لحظة، التقطت خلالها نفسًا آخر، قبل أن تتابع:

- ولكنها صمدت

سألها مستر (X):

- وماذا عنه؟!

أشارت بيدها، قائلة:

- كان قد بذل جهدًا خرافيًا، يفوق قدرات أي بشري عادي، وفقد الكثير من الدماء، من إصاباته المختلفة، ولكنني استطعت نقله إلى غواصة طوارئ خاصة صغيرة، مقاومة لموجات السونار، وانطلقت به مبتعدة، إلى جزيرة أخرى صغيرة، كانت قد أعددت فيها ملجأ صغيرًا للطوارئ

غمغم في مقت:

- أنت أنقذته.

أومأت برأسها، قائلة:

- كان قوي البنية، واستعاد قدرته خلال ثلاثة أيام فحسب، وتصورت أن باستطاعتي إقناعه بالبقاء معي هناك، بعيدًا عن كل أعدائه، إلا أنه كان يعاني من حزن شديد، منعه من التجاوب معي، على أي مستوى

سألها مستر (X):

- هل أخبرته أن رفاقه على قيد الحياة؟!

ابتسمت في خبث، وهي تقول:

- أتدهش لأنني قد نجحت في إخفاء هذا عنه، على الرغم من أنني نقلتهم، على متن الغواصة الصغيرة نفسها، إلى حيث تم علاجهم؟! الغواصة حملتهم معًا، دون أن يدرك هو وجودهم، أو يدركوا هم وجوده

وتألقت عيناها في زهو، وهي ترفع سبابتها، قائلة:

- كانت لمسة عبقرية، سأظل أزهو بها، حتى آخر العمر

سألها مستر (X) في اهتمام

- ثم ماذا حدث بعدها ؟

كانت تشعر بالملل ، لأنها ليست أول مرة تروي فيها هذا ولكنها أجابت في ضجر

- لست أدري .. لقد استيقظت ذات يوم ، فلم أجده في الجزيرة .. فتشتها كلها ، ولم أجد أي أثر له .. لست أدري حتى كيف غادرها ، ولا أين ذهب ، فلم أسمع عنه منذ حدث هذا

مال نحو الشاشة ، يسألها في حزم

- ولم يعرف مصير رفاقه قط

هزت رأسها نفيا ، وهي تقول

- معذرة .. لقد خشيت أن يتعرف على أثرهم .. إذا ما علم أنهم مازالوا على قيد الحياة .. فأخفيت هذا عنه تماما ، حتى غادرني دون أن يعلمه

صمت مستر (X) طويلا هذه المرة .. قبل أن يقول في بطء :

- هل تعلمين لماذا طلبت منك رواية الأمر أكثر من مرة ؟!

قالت متذمرة

- لأنك تريد أن تقلقني ، من فرط الملل

تجاهل تعليقها الساخر ، وهو يوضح

- لأن نظام الكمبيوتر لدي ، يصر على سماع القصة الواحدة عدة مرات ، ليمكنه تحديد مواطن الصدق والكذب فيها ، قبل اتخاذ قرار بشأنها

اعتدلت على مقعدها في انتباه ، وهي تقول في حذر

- وهل فعلوا ؟

منحتها فترة الصمت الطويلة ، التي لاذ بها ، قبل أن يجيب في بطء شديد

- بالتأكيد

حمل صوتها ذلك القلق ، الذي حاولت أن تخفيه في أعماقها ، وهي تسأله

- وما الذي توصلوا إليه ؟!

صمت طويلاً هذه المرة أيضاً ، قبل أن يقول بنفس الهدوء :

- يقولون إنك صادقة في بعض أجزاء قصتك

سألته بمنتهى الحذر والقلق :

- وماذا عن الأجزاء الأخرى ؟!

وهنا مال إلى الأمام ، وحمل صوته كل صرامة الدنيا ، وهو يجيب :

- فيها كنت كاذبة ... كاذبة تماماً

وكانت مفاجأة للصهيونية الحسناء

مفاجأة مربكة .

للغاية !

٥- الوحش ..

شد الجنرال (ليفي) قامته ، في صرامة شديدة ، وهو يتأمل رجل المخابرات الإسرائيلي (إيتان كوهين) في مقعده ، قائلاً في خشونة

- تصورت أن علاقتك قد انتهت رسمياً ، ويدهشني أن تطلب مقابلتي بهذا الإصرار .

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي الإسرائيلي ، وهو يقول

- تصور خاطئ يا عزيزي الجنرال ، فبعد ساعة واحدة ، سيصلك أمر مباشر من قيادتك ، بالتعاون معي ، إلى أجل غير مسمى

انعقد حاجبا (ليفي) الكثّان في غضب ، وقال في حدة :

- فليكن ... سأناقش هذا مع قيادتي ، أما الآن ، وحتى أتلقى الأمر رسمياً ، فلست

قاطعه (إيتان) في صرامة :

- كفى يا جنرال

قال في غضب أكثر ، من عيني (إيكوب) ، ولكنه تابع بنفس الصرامة

- لا يحق لك الحديث على هذا النحو العصبي ، في ظروف كهذه .. لقد تعلمت دومًا أن تتحكم بأعصابك ، ومشاعرك الشخصية ، عندما تواجه الخطر

قال (إيكوب) في غلظة

- وماذا لو أنني لم أفعل ؟!

أجابه (إيتان) في حزم

- بل ستفعل يا جنرال ؛ لأن ما تحمله لك من معلومات ، سيقلب خططك كلها رأسًا على عقب

وعلى الرغم من غضبه ، التقط (إيكوب) رائحة مقلقة في نبرة رجل المخابرات الإسرائيلي ، فسأله في شيء من العصبية :

- أية معلومات ؟!

أدرك (إيتان) أنه قد أصاب هدفه ، فانتقى أفضل مقعد في حجرة الجنرال (إيكوب) وجلس عليه ، في استرخاء ، قائلا :

- إنك لم تقض عليهم

لم يرتح (إيكوب) للعبارة ، وهو يسأل في خشونة

- من تعني ؟

أشار الإسرائيلي بيده ، قائلا

- خصومك .. الثعالب .. إنهم ما زالوا على قيد الحياة!

حدق الجنرال في وجهه بضع لحظات ، في صمت مستنكر ، قبل أن يقول في عصبية

- مستحيل !

ثم أشار إلى الخريطة المعلقة خلفه ، متابعًا في حدة

- لقد حددت المعلومات موقعهم ، وقمنا بمحوه من الوجود تمامًا ، ولم نسمح حتى للذبابة بالخروج منه ، حتى يلقى كل من فيه .

هز (إيتان) رأسه نفيًا في بطء ، وهو يقول ،

ـ لم يلاحظوا هناك .

احتقن (ليكون) ، وانعقد وجهه بشدة ، وهو يقول :

ـ مستحيل !

ثم أشار بيده ، مضيفاً في عصبية :

ـ ولكن كل شيء يؤكد هذا .. لقد أبديا مقاومة لمختطفيهم ، ومنحناه مهلة ، وبعدها توقفت عملياتهم الإجرامية تماماً ، وهذا دليل على أن أمرهم قد انتهى

هز (إيتان) رأسه نفياً ، وهو يقول :

ـ بل هذا هو الهدوء ، الذي يسبق العاصفة [illegible]

هز رأسه (ليكون) بضع لحظات أخرى ، ثم قال في عصبية

ـ لا .. لا يمكن أن تكون على حق .

احتقن الإسرائيلي في مقعده ، وقال في حزم

ـ معلوماتنا مؤكدة يا جنرال .. الثعالب على قيد الحياة ويستعدون لتوجيه ضربة ثأرية عنيفة

انبعث صوت الجنرال ، وهو يغمغم

ـ نحن ؟!

مال (إيتان) نحوه ، مجيباً بملامحه الصارمة

ـ أنت يا جنرال

حدق فيه (ليكون) مرة أخرى ، بكل توتر القلب ، قبل أن يسحب مسدسه فجأة ، ويصوبه إليه ، قائلاً

ـ فهمت .

هب (إيتان) من مقعده ، هاتفاً في استنكار .

ـ ماذا تفعل يا جنرال ؟!

صاح به (ليكون) في وحشية ، وعلى نحو يوحي بأنه لن يقبل أية مناقشة :

ـ إياك أن تنطق حرفاً واحداً .. أقسم أن أطلق النار بلا رحمة ، لو صدرت منك أية حركة

هتف (إيتان) في غضب :

ـ جنرال !

صرخ فيه (ليكون) في ثورة :

ـ اصمت .

ثم شد قامته ، وصوب إليه فوهة مسدسه بامتداد ذراعه ، متحليًا بكل خشونة الدب

ـ اجذب أنفك

غمغم الإسرائيلي في دهشة

ـ أجذب ماذا ؟!

صرخ فيه الجنرال

ـ أنفك .. اجذبه بكل قوتك ، وإلا أطلقت النار على رأسك مباشرة .. هيا

وهنا فقط أدرك (ريشان) سر انفعاله ، فأطلق ضحكة مستنكرة عالية ، وهو يجذب أنفه في قوة .. قائلا :

ـ آه .. اطمئن يا جنرال .. أنا (ريشان كوهين) الحقيقي ، ولست أحد الثعالب

ازداد انعقاد حاجبي الجنرال ، وخفض فوهة مسدسه في بطء ، وهو يقول متوترا

ـ إذن فالمعلومات صحيحة

أجابه الإسرائيلي في حزم

ـ ومؤكدة .

امتقع وجه (ليكون) ، وأطل من عينيه ذعر شديد ، وهو يقول

ـ رباه !! سيسحقون [illegible] إذن

غمغم الإسرائيلي

ـ ليس لدي أدنى شك في هذا

ثم ران على الحجرة صمت رهيب ، قطعه الجنرال فجأة ، وهو يلتفت إلى الإسرائيلي بحركة حادة ، متسائلا

ـ وهل أخبرتك مصادرك .. أين مكمنهم بالضبط ؟!

شد الإسرائيلي قامته ، قائلا في صرامة

ـ ولماذا ؟! لتقيم مجزرة جديدة ؟!

بدا الجنرال أشبه بوحش كاسر بغتة ، وهو يجيب

- لن أتزحزح عن هذا لحظة واحدة .. سأبيد (العراق) كله ، لو اقتضى الأمر ، حتى أقضي على هؤلاء العرب

انعقد حاجبا (إيتان) ، وعقد كفيه خلف ظهره ، وهو يقول في صرامة :

- الآن عرفت لماذا تخسر معاركك

زمجر الجنرال في شراسة ، ولكن الإسرائيلي تابع :

- إنك تفقد عقلك تمامًا مع غضبك

صرخ الجنرال :

- لن أسمح لهم بالبقاء على قيد الحياة ، مهما كلفني هذا .

أجابه الإسرائيلي في غلظة :

- حتى مستقبلك وحياتك

العبارة جعلته يستعيد صوابه ، ويتراجع منفعلًا في عصبية :

- لا يمكنني أن أتركهم

أجابه الإسرائيلي في سرعة :

- فلتجد الفجوة إذن

تطلع إليه الجنرال في تساؤل ملهوف .. فتابع في حزم :

- دعنا نسبقهم بخطوة هذه المرة

سأله الجنرال في انفعال :

- وكيف ؟!

أجابه بنفس الحزم :

- بأن نطرح على أنفسنا سؤالًا واضحًا ، ويستحق أن نبحث عن جوابه

ثم مال نحو الجنرال ، مضيفًا :

- ترى أين ستكون ضربتهم التالية ؟!

وانعقد حاجبا الجنرال بمنتهى الدهشة

واستيقظت كل خلية في عقله

فقد كان هذا بالفعل هو السؤال

ما هو الهدف التالي للثعلب ؟!

ما هو

بالتحديد ؟!

* * *

همس صوت أحد رجال المخابرات الإسرائيلية، الذين يعملون تحت قيادة (إيتان كوهين) [illegible] ، وهو يضم إلى رفاقه التسعة الآخرين ، في قاعة الاجتماعات الصغيرة ، في ذلك الفندق الشهير ، في قلب العاصمة (بغداد) ، قائلاً :

ـ عجبًا ! هل دعاك القائد جميعًا إلى هذا الاجتماع ؟!

أجابه أحد رفاقه ، وهو يقلب شفتيه

ـ نعم .. لقد أدهشنا هذا أيضًا ، خاصة وأنه ظل يؤكد دومًا ضرورة عدم تواجدنا معًا ، ولكن أوامره كانت صريحة تمامًا ، عندما أجرى اتصاله بنا ، منذ ساعة واحدة

غمغم ثالث :

ـ ربما حدث تطور مهم في الأمور ، يستدعي اجتماعه بنا جميعًا

هز الأول كتفيه ، مغمغمًا :

ـ ربما .

ولم يكد ينطقها ، حتى اشتعل الموقف كله بغتة

وبلا مقدمات

عبر أربعة من نوافذ قاعة الاجتماعات ، انقض أربعة أسود

اقتحمت أجسادهم زجاج النوافذ بغتة ، في الطابق العاشر من الفندق ، وهبط الأسود الأربعة داخل المكان

وقبل حتى أن يستوعب رجال المخابرات الإسرائيلية ما حدث ، كان الأبطال الأربعة ينقضون

ويضربون ،

ويحطمون

ويقاتلون .

- ما هو الهدف التالي للثعلب ؟!
- ما هو
- بالتحديد ؟!

* * *

همس صوت أحد رجال المخابرات الإسرائيلية ، الذين يعملون تحت قيادة (إيهان كوهين) ، أكثر توترًا ، وهو ينضم إلى رفاقه التسعة الآخرين ، في قاعة الاجتماعات الصغيرة ، في ذلك الفندق الشهير ، في قلب العاصمة (بغداد) ، قائلًا :

- عجبًا ! هل رجال الفريق جميعه في هذا الاجتماع ؟!

أجابه أحد زملائه ، وهو يتطلع حوله :

- نعم .. لقد أدهشني هذا أيضًا ، خاصة وأنه ظل يؤكد دومًا ضرورة عدم تواجدنا معًا ، ولكن أوامره كانت صريحة تمامًا ، عندما أجرى اتصاله بنا ، منذ ساعة واحدة .

غمغم ثالث :

- ربما حدث تطور مهم في الأمور ، يستدعي اجتماعه بنا جميعًا .

هز الأول كتفيه ، مغمغمًا :

- ربما .

ولم يكد ينطقها ، حتى اشتعل الموقف كله بغتة .

وبلا مقدمات ..

عبر أربعة من نوافذ قاعة الاجتماعات ، انقض أربعة أسود ..

تحطمت ليصطدم زجاج النوافذ بغتة ، في الطابق العاشر من الفندق ، وهبط الأسود الأربعة داخل المكان ..

وقبل حتى أن يستوعب رجال المخابرات الإسرائيلية العشرة ما حدث ، كان الأبطال الأربعة ينقضون ..

ويضربون ..

ويهاجمون ..

ويقاتلون

قبضاتهم حطمت الفكوك والأنوف بلا هوادة

ركلاتهم غاصت في البطون ،

والصدور ..

والرءوس

ولقد حاول الإسرائيليون المقاومة

حاولوا حتى الوصول إلى أسلحتهم

واستخدامها

ولكن أيديهم تكسرت

ورءوسهم تحطمت

وأرواحهم تفجرت

وسقطوا

وعندما بدءوا في استيعاب الموقف كانوا ملقين بعضهم

إلى بعضهم ، وسط القاعة الصغيرة ، وفوهات المدافع الآلية

بالرجال الأربعة مصوبة إليهم ، وصوت (أدهم) الصارم يصك

آذانهم ، قائلا :

- ما فعلناه بكم الآن هو مجرد رسالة

غمغم أحد الإسرائيليين في صعوبة ، والدماء تتناثر من

بين شفتيه ، من موضع أسنانه المكسورة :

ولكن كيف ؟! كيف عرفتم شفرة الاتصال السرية

أجابه (أدهم) بمنتهى الصرامة :

- ربما نعرف أكثر مما تتصورونه بكثير

غمغم إسرائيلي آخر في ذعر :

- وماذا ستفعلون بنا ؟

أجابه الأردني ، في مقت وتشنج

- لو أن الأمر بيدي ، لحصدتكم برصاص مدفعي هذا في

الحال

رمقه المصري بنظرة عتاب ، وهو يهتف :

- ولكننا لا نطلق النار على العزل

مط المغربي شفتيه ، قائلاً :

- لو أنهم في موضعنا ، لما ترددوا لحظة في فعل هذا ، دون أن يطرف لهم جفن .

هنا ، أجابه (أدهم) بمنتهى الصرامة :

- ولكننا لسنا في موضعهم ، وليسوا في موضعنا .

تبادل الإسرائيليون نظرة عصبية ، وكلهم يحدقون في ملامح (أدهم) ، الذي لم يكن يحمل وجهه الحقيقي لحظتها ، ثم همس أحدهم في خفوت :

- ماذا تريدون منا ؟!

أجابه (أدهم) في خشونة :

- لنحملكم فقط رسالة .

ثم مال نحو الرجل ، الذي ارتجفت أوصاله ، وهو يحدق في العينين الفلسطينيتين أمامه ، مع ذلك الصوت الصارم ، و(أدهم) يتابع :

- أخبروا رئيسكم أنه في المرة القادمة ، لن نبقي على أحد ، وأنه لو أصر على الحصول على قطعة الأرض ، بين (بغداد) و(يعقوبة) ، فسيحصل عليها

هتف الإسرائيلي في دهشة :

- حقاً !

أجابه (أدهم) بمنتهى الصرامة :

- قبر له .

ثم اعتدل ، مضيفاً :

- انتهت الرسالة ... هيا يا رفاق .

وعبر النوافذ الأربعة نفسها ، ومن الطابق العاشر للفندق خرج الأبطال الأربعة

واختفوا في لحظات

تماماً .

* * *

تراجع مدير المخابرات المصرية في مقعده في بطء ، وهو يطالع ذلك التقرير الأخير ، الوارد من (العراق) ، قبل أن يضعه على سطح مكتبه ، ويبتسم ، قائلاً :

- إنه هو ...

أجابه معاونه في حماس :

- هذه المرة لم يعد لدى الكثير أدنى شك في أنه أسلوب سيادة العميد (أدهم)

نهض المدير من خلف مكتبه قائلا :

- ولكن لماذا ؟ .. لماذا يختار (العراق) مسرحا لصراعه ، ولماذا لم يحاول الاتصال بنا ؟!

أجاب المعاون :

- حتى نجيب هذه الأسئلة ، أقترح أن نسعى نحن للاتصال به يا سيدي

هز المدير رأسه قائلا :

- لن يكون هذا سهلا ، فإذا ما قرر (ن - ١) الاختفاء ، فما من وسيلة على الأرض يمكنها التوصل إليه

بدت علامات التفكير على وجه المعاون ، وهو يقول :

- لابد من وسيلة ما

قال المدير في حسم :

- ما لم يسع هو للاتصال بنا ، فلن نجد وسيلة واحدة للوصول إليه

عقد حاجبيه للحظة ، وهو يفكر مرة أخرى في عمق ، قائلا :

- لابد وأن ندفعه للاتصال بنا إذن

تطلع إليه المدير في اهتمام ، وهو يقول :

- السؤال هو كيف ؟ .. كيف ندفعه إلى إجراء اتصال معنا ، وهو الذي تحاشى هذا طويلا ؟

بدت الحيرة على وجه المعاون بضع لحظات ، حتى قال المدير فجأة :

- المعلومات

سأله معاونه في حذر :

- ما الذي يعنيه هذا يا سيدي ؟

بدا المدير متحمسا ، وهو يقول :

- (ن - ١) رجل مخابرات محنك، يدرك جيدًا قيمة المعلومات، كأقوى سلاح يواجه به خصومه، ومن شوكته أنه يجمع الكثير منها، قبل أن يضرب ضربته، في كل مرة

سأله المعاون

- وكيف يمكننا استغلال هذا ؟!

أجابه المدير في سرعة

- سننشر الأمر بين صفوف المقاومة الفرنسية .. سننقل إلى الكل رغبتنا في الاتصال به، على نحو يبدو أشبه بشائعة لا يمكن تحديد مصدرها، وعبر خيوطه، سيلتقط (ن-١) الرسالة حتمًا

تساءل المعاون في اهتمام :

- وهل سيجرى الصفقة بك عندئذ ؟!

صمت المدير بضع لحظات، قبل أن يجيب في حزم

- سيكون هذا قراره

لم يكد يتم عبارته، حتى دق باب مكتبه، فهتف في حزم

- ادخل

دلف مدير مكتبه إلى المكان، وهو يحمل مظروفًا، ويقول في توتر ملحوظ

- برقية عاجلة من الولايات المتحدة الأمريكية يا سيدي

التقط مدير المخابرات البرقية، وفضها في سرعة، وعيناه تلمعان في اهتمام، وراح يلتهم محتوياتها في سرعة، قبل أن تتسع عيناه، وهو يهتف في انفعال

- مستحيل

سأله معاونه بمنتهى اللهفة

- ماذا هناك يا سيدي ؟!

رفع المدير عينيه إليه، وهو يقول في انفعال جارف :

- هذه المعلومات الجديدة تجعل اتصالنا بـ (ن - ١) حتميًا

سأله المعاون بمنتهى اللهفة

- أية معلومات يا سيدي ؟

ناوله المدير البرقية، وهو يقول :

- لا بد من إجراء اتصال مع (ب - ١) .. هذا سيغير كل شيء حتمًا

وطالع معاونه البرقية بنفس اللهفة

ثم اتسعت عيناه عن آخرهما .

فالمعلومة المؤكدة ، التي وصلت فجأة من الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت قادرة على تغيير الموقف كله بالفعل

وبعدها ..

* * *

حطت تلك الهليوكوبتر الأمريكية الصغيرة ، على رابية منخفضة ، فوق بقعة مكشوفة ، من أحراش (جواتيمالا) ، وراح رجال الكوماندوز يثبون منها ، واحدًا بعد الآخر ، ويتخذون مواقعهم في سرعة وخفة ، قبل أن ترتفع الهليوكوبتر مبتعدة وتختفي في الأفق

وفي سرعة عسكرية ، قال قائد الكوماندوز لرجاله

- سنلتقي هناك برجال .. وسيبدأ هجومنا مع سطوع الفجر الأول

فرد أمامهم خريطة كبيرة بعدها ، وراح يرسم عليها خطوط الهجوم ، في حين تساءل أحد الضباط في خشونة

- أما زالت أهداف العملية كما هي ؟!

أجابه القائد على الفور

- نعم .. سنهاجم معسكر (بيدرو الأسمر) ، من ثلاثة محاور ، وسنسعى لتحرير الأسرى الأربعة .. الذين يحتفظ بهم

تساءل الضابط

- هل يشمل الأمر القضاء على (الأسمر) نفسه ؟!

صمت القائد بضع لحظات ، قبل أن يجيب في صرامة

- كلا

تأمله ضابطه برهة متفهمًا ، وهو يقول

- إذن فستنتهي العملية ، فور استعادة الأسرى

أجابه القائد

- نعم .. الأولوية لاستعادة الأسرى

انبرى ضابط ثانٍ، يقول:

- لست أظن (لاشمس) سيسمح لنا بهذا

سأله القائد في غلظة

- ماذا تعني ؟!

أجابه في سرعة

- أعني أنه لو أحس في موقعه باتخاذنا كل الاحتياطات اللازمة، لنسف الأسرى نسفًا، دون أن نحاول حتى الحصول عليهم

انعقد حاجبا القائد، وهو يقول في صرامة

- المعلومات لدي تقول إنه سيحاول المحافظة عليهم، حتى آخر رمق

تساءل الضابط الأول في اهتمام

- ولكن لو افترضنا أنه لن يمكننا من استعادتهم أحياء، ماذا ينبغي أن نفعل عندئذ ؟

اعتدل القائد، وشد قامته باعتداد، قبل أن يجيب

- عندئذ سننفذ الأوامر

تساءل الضابط الثالث

- وما هي ؟!

ازداد انعقاد حاجبي القائد، وهو يقول بمنتهى الصرامة

- أن يتم تصفية الجميع .. (لاشمس) .. ورجاله .. والأسرى الأربعة أيضًا .. وبلا رحمة

وهنا لم يطرح ضباطه أسئلة جديدة

أية أسئلة

* * *

« ما حدث مهزلة .. »

نطق الجنرال (بيكون) العبارة، في لهجة أرادها صارمة قاسية، إلا أنها حملت، على الرغم منه، سخريته وشماتته، وهو يواجه رجل المخابرات الإسرائيلي، مستطردًا

- رجالك الأقوياء أصبحوا أضحوكة (العراق) كله، وخبر ما فعله بهم الثعلب، تتناقله الألسن في كل مكان

تهلل وجه (إيثان) وهو يقول في مقت

ـ أعلم أن هذا يسعدك يا عزيزي الجنرال، ولكن ينبغي أن تعلم أن سياستك تختلف

ابتسم (إيكون)، وهو يقول بنفس الشماتة

ـ لا تقل لي إنها تعتمد على تقبل الهزائم بصدر رحب!

ضغط (إيثان) أعصابه، بكل ما يملك من إرادة، وهو يجيب

ـ كلا يا جنرال.. ولكنها تعتمد على مبدأ الاستفادة من الكوارث

غمغم (إيكون) في سخرية

ـ حقاً؟!

أجابه (إيثان) في حزم:

ـ نعم.. حقاً يا جنرال.. لقد طورت هذا الأسلوب في إدارتي، وأجريت عليه بضع تجارب، أثبتت جميعها التفوق

هز الجنرال كتفيه الضخمين، وهو يقول

ـ هل المفترض أن أشعر بالانبهار؟

أجابه (إيثان) في غلظة:

ـ يمكن أن ترهف سمعك.. وتنصت لما سأقوله جيداً

هز الجنرال كتفيه مرة أخرى في استهتار، وهو يقول

ـ كلي آذان مصغية

مال (إيثان) إلى الأمام، وهو يقول في حزم

ـ الموقف الذي كنت أتوقع ما حدث

هش وجه الجنرال (إيكون) بابتسامة كبيرة ساخرة، فاندفع (إيثان) في شيء من العصبية.

ـ ربما لم أتوقع الوسيلة التي حدث بها، ولكنني كنت أدرك أن خصومنا من الدهاة، بحيث سيستوعبون الموقف كله، ويحاولون توجيه ضربتهم الأولى لنا

وصمت لحظة، ثم أضاف في حزم

ـ ولهذا استخدمت مراقبين سريين

وهنا، تساءل الجنرال في اهتمام

ـ حقاً؟

أضاف (إيثان)، وقد شعر ببداية سيطرته على الموقف

- وعبر اتصالات مباشرة ، مع قيادتك في (واشنطن) ، ستكشف أقمار التجسس الأمريكية ، لرصد وتصوير المنطقة كلها ، عندما وقع هجوم الثعالب

اعتمد الجنرال على مقعده ، عند هذه النقطة ، وبدا شديد الاهتمام ، وهو يحدق في الإسرائيلي الذي تابع

- ومع هذا وذاك ، أمكننا أن نتتبع الثعالب ، بعد أن أنهوا هجومهم

هتف (ليكون) في انفعال

- وهل عرفتم مكانهم ؟

تألقت عينا (إيتان) ، وهو يشد قامته ، ويجيب في حزم

- بالتأكيد

لثوان ، ظل الجنرال يحدق فيه مبهوتا ، قبل أن ينتفض جسده كله في عنف وانفعال ، وهو يهتف

- أين ... أين يختبئون ؟

زمجر (إيتان) ، وهو يقول في شيء من الشراسة

- لن تفشل العملية هذه المرة

صاح به الجنرال في غضب :

- ماذا تعني أيها الإسرائيلي ؟!

أجابه (إيتان) ، في شراسة شديدة

- أعني أن قيادتي قد عقدت صفقة مع قيادتك ، أصبحت بموجبها المسئول الوحيد ، عن التعامل مع أولئك الثعالب ، والسعي لاصطيادهم بأي ثمن

انعقد وجه (ليكون) بمنتهى الشدة ، وبدا لحظة أنه سينفجر في وجه الإسرائيلي كبركان ثائر ، إلا أنه لم يلبث أن تمالك نفسه ... وقال في عصبية

- المهم أن يتم القضاء عليهم ... بأي ثمن

كان من الواضح أنه يعتصر شيئا ما في أعماقه

ولكن الإسرائيلي لم يبال

لأول مرة ، منذ بدأ كل هذا ، يصبح واثقا من انتصاره

ومن قدرته على اقتناص ثعالب المخابرات العربية

جميعهم

* * *

٦ - هجوم ..

دفع وزير الدفاع الأمريكي ورقة مطبوعة، تحمل الشعار الرسمي لجيش الولايات المتحدة الأمريكية، أمام الرئيس، الذي انعقد حاجباه، وهو يتطلع إليه في توتر حذر، متسائلاً:

- ما هذا بالضبط ؟!

اعتدل وزير الدفاع، وهو يجيب:

- قواتنا في (كولومبيا) اتخذت مواقعها، وتنتظر الأمر بالهجوم.

قال الرئيس في عصبية:

- وما شأني أنا بهم ؟!

أشار وزير الدفاع إلى الورقة، قائلاً:

- هذا هو الأمر الرسمي بالهجوم .. عليك أن توقعه

ل .

- كلا .

قاطعه الرئيس بالكلمة، في حزم عصبي، قبل أن يزيح الورقة جانباً، ويهتف في توتر:

- لن أوقع مثل هذا الأمر أبداً

شد وزير الدفاع قامته، وعدل منظاره على وجهه، وهو يقول مستنكراً، في لهجة ملتهبة:

- إن لم توقعه، فإن الهجوم لا يمكن أن يتم، دون أن تصدر الأمر بذلك يا فخامة الرئيس

قال الرئيس في حدة:

- وماذا عنك ؟! أنت وزير الدفاع، والمسئول عن أية قرارات هجومية، تخص جيش الولايات المتحدة

رمقه وزير الدفاع بنظرة باردة، وهو يقول:

- خطأ يا سيادة الرئيس .. أنا مسئول فقط عن تنفيذ أوامرك في هذا الشأن، أما اتخاذ القرار، فهو منوط بالكونجرس، الذي فوضك في هذا الشأن، منذ أزمة (العراق)

بدا الرئيس غاضباً، وهو يقول:

- ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟!

هزّ وزير الدفاع كتفيه، قائلا:

- لقد نفذت أوامرك، وأرسلت الرجال إلى (أدغال كولومبيا) وتلك ثمن القتال هناك أمر آخر، فلن يمكنني تبرير الموقف لو...

قاطعه الرئيس في عصبية:

- لو فشلت العملية... أليس كذلك؟!

حاول وزير الدفاع أن يخفي ابتسامته، وهو يقول:

- لم أقل هذا.

احتقن وجه الرئيس الأمريكي في غضب، ونهض من خلف مكتبه، وهو يقول في حدة:

- كان ينبغي أن أدرك هذا منذ البداية... كان ينبغي أن أدرك أن كلاً منكم يسعى لمصلحة نفسه ومنصبه فقط... لا أحد يبالي بالمصالح المشتركة، كما تدعون دائما.

غمغم وزير الدفاع:

- سيادة الرئيس... إنها مجرد تصرفات [illegible]

صاح به الرئيس في غضب:

- وماذا لو رفضتها؟!

حمل صوت وزير الدفاع كل الصرامة، التي ارتسمت على ملامحه، وهو يواجه الرئيس، قائلا:

- سيكون عليك في هذه الحالة، أن تبرر لمستر (X)، وأن تتحمل عواقب عدم تلبية الهجوم

احتقن وجه الرئيس الأمريكي أكثر وأكثر، وراح يدير الأمر في رأسه، على كل الوجوه، ويقارن بين قدرته على إقناع الكونجرس، وعواقب كشف مستر (X) للاتفاق، الذي عقده مع الإدارة الأمريكية

ثم، وبكل العصبية، اندفع نحو مكتبه، وجذب ملف الأمر، وذيّله بتوقيعه، وألقاه إلى الوزير، قائلا:

- ثقة.

وابتسم الوزير، وهو يطوي الورقة، ويدسها في جيبه،

- أشكرك يا سيادة الرئيس.

وكان هذا يعني تنفيذ الهجوم هناك

في أحراش (كولومبيا)

* * *

قبل أن يبزغ أول شعاع للشمس، وسط أحراش (كولومبيا)، تحرك فريق الكوماندوز الأمريكي

تحركوا بمنتهى الدقة، والمهارة، والحذر، عبر الأحراش المتشابكة..

ودون تبادل كلمة واحدة، راح قائد الفريق يلقي أوامره إلى معاونيه، الذين انتشروا، وفقًا لخطة الهجوم، لتطويق قلعة (باولو لاماس) من ثلاثة محاور

ووفقًا لتكتيك دقيق، تم حصار المنطقة كلها، في براعة تامة

وكمن الرجال في أماكنهم صامتين ساكنين، يرصدون المكان بمنتهى الدقة

ومنتهى الحذر

كان من الواضح أن إمبراطور المخدرات الكولومبي مستعد تمامًا لمثل هذا الهجوم، فقد وزع رجاله على نحو دقيق، وكل منهم مسلح بعدد من القنابل اليدوية، ومدفع آلي قوي، من أحدث طراز

كما كانوا يتحركون في نظام منتظم، بحيث يمكنهم رصد المنطقة المحيطة بالمكان، من كل الاتجاهات، وطوال الوقت

النقطة الإيجابية الوحيدة هي أنهم لم ينتبهوا لوجود فريق الكوماندوز..

وهذا يعني أن الأمريكيين يمتلكون عنصر المفاجأة

ويمتلكون القدرة على المفاجأة

وفي عمليات كهذه، يربح المفاجئ نصف القتال مع الهجوم الأول

لذا فقد تأهب الأمريكيون

وتحفزوا

وتحركوا لاتخاذ المواقع، التي تدربوا عليها

كانوا يتحركون بمنتهى الخفة، ووفق خطة متقنة

ولكن ساق أحدهم ارتطمت بخيط رفيع

خيط يمتد من جذع شجرة إلى أخرى، ويختفي وسط الأغصان والأعشاب المتشابكة

ومع ارتطام الأمريكي بالخيط، انتزع دون أن يقصد، فتيل قنبلة يدوية خفية..

ولأنه محترف، ومدرب جيدًا، فقد أدرك ما حدث، فور حدوثه، لذا فقد وثب إلى الخلف بكل قوته، هاتفًا:

- فخ

ومع هتافه، دوى الانفجار..

انفجرت القنبلة اليدوية في عنف، وطاحت برجل آخر

واشتعلت فتن الموقف كله دفعة واحدة

بل اشتعلت الجحيم

الجحيم نفسه

* * *

لأول مرة في حياتها، شعرت الصهيونية الحسناء (ليا) بإرهاق عنيف، جعلها عاجزة عن ترتيب أفكارها، وهي تجلس في منتصف تلك الحجرة الصغيرة، وصورة مستر (X) تملأ شاشة ذهنها، وهو يقول:

- هل أيقنت الآن من أن الخروج من هذا المكان مستحيل؟

حاولت أن تفتح عينيها في صعوبة، وهي تقول:

- ولماذا تحتجزني فيه طوال الوقت؟! هل قررت أن تقتلني جوعًا وعطشًا؟!

أجابها في خفة وسخرية

- بل قررت أن أجبرك على قول الحقيقة

قالت في تهالك:

- لقد أخبرتك بها

أجاب في سرعة وصرامة

- ليس كلها

بهتت من فرط الإجهاد والانفعال، وبدا لها أنها تخوض معركة خاسرة بلا أمل، فتمتمت

- ما الذي تريد معرفته بالضبط ؟!

اعتدل على مقعده، قائلاً

- ما مصير (أدهم صبري) ؟!

فكرت لحظة في المراوغة، إلا أن ما تشعر به من إنهاك، جعلها تقول في خفوت :

- لست أدرى

تألقت عيناه، وهو يقول:

- لن تفلت من تخرجه من تلك الحفرة

قالت في توتر :

- لقد حاولت، ولكنه كان تكوين الأرض بالقصبة أبي، كما أن الحرارة كانت مرتفعة للغاية

سألها

- ماذا فعلت أنت ؟!

ازدردت لعابها في صعوبة، وأجابت

- هربت

سألها في اهتمام:

- مع رفاقه

بدا له أن جوسبي قد تنبهت على نحو ما، وهي تجيب

- كنت قد سبقتهم بالفعل إلى تلك الغواصة، وكان من الحماقة أن أتركهم خلفي.

اعتدل يسألها:

- ولماذا ؟!

لمعت عيناها في وهن، وهي تجيب

- كنت أعلم كم سيسعدون لها بعد

قال في خشونة

- (أدهم) كان سيساوى أكثر حتف

صمتت لحظة، ثم أجابت

- لم يكن لدى خيار

كانت لهجته تبدو أكثر منطقية هذه المرة، إلا أنها فجرت داخله تساؤلات عديدة جديدة

تساؤلات ضاعفت من قلقه ألف مرة، وهو يقول:

- إذن فقد كانت هناك بالفعل شبكة معرفات هروب مزمنة، ومقاومة للظهور !!

أومأت برأسها إيجابا، لتطلع إليه بضع لحظات في صمت، عبر أجهزة الرصد الدقيقة، ثم لم يلبث أن قال في صرامة

- والزعيمة كانت تعلم هذا

صمتت

- بالتأكيد

اعتدل، قائلا في غضب

- إذن فقد نجت أيضا

انتبهت حواس (أنيا) كلها هذه المرة، واعتدلت في صعوبة، تحدق في الشاشة، ولكن الاحتمال لم يرد في ذهنها أبدا

أما هو، فقد فجرت الفكرة في أعماقه غضب بلا حدود، وتوترا يتجاوز كل المستويات

لو أن (أدهم) ورفاقه لم ينجوا، فهذا يعني أن الزعيمة أيضا قد نجت.

لقد أنشئت شبكة المعرفات المؤمنة

وهي تحفظها عن ظهر قلب حتما

ومن المحتم أنها لم تتوان في استخدامها للنجاة!

براعتها، التي يعرفها جيدا، تحتم عليها أن تفعل

وهذا يتوافق مع المعلومات، التي وصلته أخيرا

المعلومات، عن ظهور امرأة غامضة، في قلب عالم العصابات في (موسكو)، تبحث عن تمويل لإنشاء كيان ضخم

أو لاستعادة كيان ضخم

ضخم للغاية.

وهذا سيستتبع حتماً القضاء على الكيانات المتنافسة

في الحركات المتنافسة ..

ـ كنت تعرفين أكثر مما قلت .. »

تطلع عبرها في فراسة شديدة، لتنبعث خوفه على مصير منظمته، فلوحت (تانيا) بيديها، قائلة في ارتباك

ـ لم يعد لدي ما أضيفه

صمت بضع لحظات، ثم قال في صرامة

ـ ربما ليس بشكلك الواضح

تلعثمت في حيرة

ـ ماذا تعني ؟!

بدا صوته قاسياً كالفولاذ، وهو يقول

ـ أعني أنه مارست شيئاً وشيئاً آخر، للتعامل معه وسائل غير تقليدية على الإطلاق

وظهر كيان الصهيونية الحقة

في عنف .

* * *

دلف الأدهم (وجيه الهاشمي) إلى حجرة، في ذلك المكتب الخاص، وأغلق بابه خلفه، وهو يقول

ـ السوق مكتظ بالأحاديث اليوم

سأله السوري في اهتمام

ـ هل من جديد ؟!

أجابه، وهو يلقي جسده على أقرب مقعد إليه:

ـ بالتأكيد

بدا الاهتمام على السوري، وترك ما يعمل به، ليسأله

ـ ما الجديد ؟!

اعتدل الأدهم، قائلاً

ـ رجل المخابرات الإسرائيلي ذهب للقاء الجنرال ([illegible]) في مكتبه، وهذا يعني بدء تحالف شرير جديد

غمغم السوري

ـ كان هذا متوقعاً

تابع الأدهم

- ويقولون إن طاقم (الموساد) ، الذي أتلف بمصيبته ، قد غادر (بغداد) ، عائداً إلى (تل أبيب) ، ولن نتمكن منهم جميعاً في الطريق ... فلقد اتخذ كل عدة

جذب الخبر اهتمام وانتباه السوري والمغربي معاً ، وتساءل الأول :

- هل من تأكيد لهذه المعلومة ؟

هز الأردني رأسه ، مجيباً :

- ليس بعد ، ولكنها تتردد بشدة ، في كل المحافل

قال المغربي في حزم :

- المعلومات السمعية من مصدر واحد لا يمكن الاعتماد عليها بصفة مؤكدة ... هذا ما تعلمناه ... نحتاج إلى تأكيد من مصدر آخر ، أو إلى دليل بصري ثابت على الأقل

غمغم الأردني :

- سنسعى للحصول على هذا

قال المغربي :

- عليك كذلك أن تعلم

ساد صمت قصير ، بعد عبارته الأخيرة هذه ، ثم لم يلبث الأردني أن قطعه ، وهو يقول :

- هناك أمر آخر

نطقها على نحو جعل رفيقيه يدركان أهميته لديه ، فتبادلا نظرة معاً بحرص متسائلين ، جعلته يتابع

- يتردد بشدة أن المخابرات المصرية تبحث عن أحد رجالها ... فقد في الأطلنطي ، ولكنها تتوقع وجوده هنا

تبادل الرجلان نظرة متوترة ، قبل أن يتساءل السوري في حذر :

- وكيف ترددت معلومة كهذه ؟!

هز كتفيه ، قائلاً :

- لا أحد يمكنه تحديد المصدر بالضبط ، ولكن الأمر يرتبط برغبة المصريين في الاتصال برجلهم

تبادل الآخران نظرة متوترة ، قبل أن يتساءل المغربي :

- هل تظنونه ؟!

أجابه السوري بمنتهى الحزم

- بالتأكيد

ثم استدار إلى الأرض، مضيفاً

- عليك أن تخبره أنت، فلديك كل التفاصيل

توقف ثلاثتهم لحظة، وبدا من العسير عليهم اتخاذ القرار، ثم لم يلبث السوري أن حسم الأمر، وهو يقول في تعصب

- هيا

قالها، فاتجه ثلاثتهم نحو حجرته، وطرق السوري الباب ثلاثاً في لهجة، يتقطر منها الاحترام

- هل يمكننا الدخول يا أستاذ؟

ولم ينتبه (أدهم) إلى طرقاته الأولى

كان شارداً تماماً، وهو غارق مع ذكريات واهنة، يحاول استعادتها منذ فترة طويلة

الحرارة ترتفع، وترتفع، داخل تلك الحجرات السرية في قلب جزيرة الزعيمة

وعقله مشوش للغاية

لا أحد من حوله

لا أحد على الإطلاق

ثم ظهرت تلك المرأة

ليست (س)

ليست صبية صغيرة مثلها

امرأة قوية، جذبته في حزم، ونقلته إلى عربة صغيرة، أشبه بتلك التي تستخدم في ملاعب الجولف

وحاول هو أن ينهض

أن يتماسك

ويقاوم

ولكنه كان ضعيفاً للغاية

ضعيف إلى حد يعجز معه عن فتح جفنيه

وعبر الممرات المتلاحقة، انطلقت تلك السيارة الصغيرة

وانطلقت

وانطلقت

والحرارة ترتفع ..

وترتفع

وترتفع

وغمر العرق وجهه

وجسده

وكيانه كله

ثم شعر بيد أنثوية تتحسس جبهته

وبعدها أظلمت الدنيا

تمامًا

- أستاذ ..

فانتزعته الكلمة هذه المرة من شروده، فاعتدل، قائلاً في هدوء يغلب عليه طابع الحزن:

- تفضل

دلف رجال المخابرات العربية الثلاثة إلى الحجرة، وقال السوري:

- زميلنا (وجيه) لديه ما يخبرك إياه يا أستاذ

أدار (أدهم) عينيه إلى الأردني، الذي تنحنح، قائلاً:

- أتوقع أنها معلومات جمعتها من الأسواق

وراح يروي كل ما لديه، حول رغبة المخابرات المصرية في الاتصال برجلها.

واستمع إليه (أدهم)

استمع إليه جيدًا، ودون أن يقاطعه بحرف واحد

وعندما انتهى الأردني من روايته، ران على الحجرة صمت رهيب

صمت، تعلقت خلاله عيون الرجال الثلاثة بوجه أستاذهم (أدهم)، الذي انعقد حاجباه، وشفت ملامحه على أنه يدرس الموقف جيدًا؛ لاتخاذ قرار حاسم بشأنه

منذ جاء إلى (العراق)، قرر أن تكون هذه معركته وحده

معركة رجل واحد، لا ينتمي إلى أية جهة رسمية

رجل، تؤكد كل الأوراق الرسمية، أنه لم يعد على قيد الحياة

أو على لائحة العمل

أو عمل

رجل يمكنه أن يفعل كل ما يريد ، دون أن يصبح أية تجربة
أخرى في حرج

أو نوع من الحرج

بعد تحاشي الإعلان عن عودته

أو حتى عن وجوده على قيد الحياة

أما الآن فوطنه يبحث عنه

ويسعى إليه .

ويناديه

وهو لم يعد أبدًا تجاهل نداء الوطن

أبدًا ..

لذا ، فقد رفع عينيه إلى تلامذته ورفاقه الثلاثة ، قائلاً في
خفوت ، حسم كل حزم الدنيا :

- فليكن

ولم يعلق الرجال الثلاثة على قوله هذا ،

ولكنهم أيقنوا من أنه قد اتخذ قرارًا حاسمًا

للغاية

* * *

مع دوي الانفجـــار الأول ، وثـــب (بـــابلو لاســكاس) ،
إمبراطور المخدرات في (كولومبيا) من فراشه ، واختطف
مسدسه الآلي ، صارخًا

- هجـوم

ووفقًا لخطة مسبقة ، بدأ رجاله في إطلاق النار فورًا

وبحرارة

وكان من الطبيعي أن يتبادل رجال الكوماندوز الأمريكيين
معهم النيران

والرصاصات

والقنابل

لذا فقد تحولت الأحراش بغتة ، إلى قطعة من الجحيم

كان الطرفان يتقاتلان في استماتة، مع الفارق الرئيسي، الذي يتمثل في الهوة الواسعة، بين نظامي التدريب العسكري والعشوائي

نيران رجال (باولو) كانت أكثر كثافة

ولكن رصاصات رجال الكوماندوز كانت أكثر دقة

ثم إنهم قد تدربوا جيدًا

وعلى أيدي خبراء ..

لذا فقد راحوا يتقدمون نحو ثكنات (لامبس)، من ثلاثة محاور، ويسيطرون على الموقف رويدًا رويدًا

وهذا ما أدركته (لوتشيا)، وهي تصرخ في عصبية:

- إنهم يتقدمون

شعر (لامبس) بغضب هادر، وهو يصرخ

- وهذا يعني أنك لا تقاتل كما ينبغي

صرخت:

- هل يعني هذا أننا سنخسر المعركة ؟!

صرخ بدوره، في غضب هادر:

- ليس بعد

قالها، ووثب عبر حجرته، وتجاوز شريطًا من النيران، وهو يعدو نحو كوخ الاتصالات، ليقتحمه بمنتهى العنف، ثم يضغط على جهاز صغير فيه، هاتفًا

- لو أنهم يصرون على إشعال الجحيم، فلنواجهه جميعًا إذن

ومع قوله، ضغط كل أزرار ذلك الجهاز الصغير دفعة واحدة

ودوت الانفجارات

انفجار تلو آخر

وآخر

وآخر

ومع كل انفجار، كانت شجرة كبيرة تسقط

شجرة وراء أخرى

وأخرى

وأخرى

وعلى رءوس رجال الكوماندوز الأمريكيين، هوت الأشجار

والرصاصات

والقنابل

ولكنهم لم يتراجعوا

ولم يتوقفوا

ومن كل صوب، انهالت نيرانهم على (باولو) ورجاله

حتى أن (لوتشيا) راحت تصرخ:

ـ فلنهرب يا (باولو).. لقد خسرنا المعركة

انفجر غضب هائل في كل ذرة من كيان إمبراطور المخدرات الأمريكي، وراحت أعصابه المضطربة تأبى فكرة الهروب، فصرخ:

ـ الأسرى

صاحت به (لوتشيا):

ـ هل نستخدمهم كدروع؟

هز رأسه في قوة، صارخًا:

ـ كلا.. لقد جاءوا من أجلهم.. ولن يحصلوا عليهم أبدًا

ليس وهم أحياء

وفهمت (لوتشيا) ما يعنيه هذا القول تمامًا

وبكل الحزم، جذبت إبرة مدفعها الآلي

واندفعت لتنفيذ الأمر

لإعدام الأسرى الأربعة

بلا رحمة

* * *

٧. الحصار..

على الرغم من الطابع الهادئ الرصين، الذي تتميز به المخابرات المصرية في المعتاد، فقد بدا المعاون الأول للوزير شديد الانفعال والتوتر، وهو يدخل مكتب هذا الأخير، هاتفًا:

- الاتصال يا سيدي.

انتفض مدير المخابرات بحركة حادة، هاتفًا في انفعال مماثل:

- هل تم؟!

لوّح المعاون بورقة في يده، مجيبًا:

- لقد حصلنا على رسالة واضحة.

فاختطف مدير المخابرات الورقة في تلهف، والتهم كلماتها القليلة، في لهفة ما بعدها لهفة.

كانت مدروسة، دقيقة، تحمل التوقيع الكودي لـ (أدهم صبري)، مع كود اتصال خاصة، مكتوبة بشفرة لا يستطيعها إلا كبار ضباط الجهاز.

ولقد قرأ المدير الورقة مرة..

وثانية

وثالثة

ورابعة

وخامسة أيضًا، قبل أن يضعها على سطح مكتبه، ويتراجع في مقعده، ويلتقط نفسًا عميقًا، مسبلًا جفنيه، وهو يغمغم:

- إنه حي، حمدًا لله.

تساءل المعاون في قلق:

- لماذا لم يحاول الاتصال بنا من قبل إذن؟!

أجابه المدير، وهو ينهض من خلف مكتبه:

- من المؤكد أنه كانت لديه أسبابه.

ووقف لحظة أمام النافذة، قبل أن يضيف:

- المهم أنه حي.

ران عليهما الصمت بضع لحظات، قبل أن يتساءل المعاون في اهتمام مشوب بالحماس.

- هل يطلب منه العودة ؟!

صمت المدير بضع لحظات أخرى، قبل أن يجيب في صرامة، وهو ما زال يتطلع عبر نافذته:

وصمت لحظة أخرى، ثم استدار إلى معاونه، مضيفًا:

- ولكني أجري اتصالا معه فورًا!

تساءل المعاون:

- وما الذي تخبره فيه ؟

طال صمت المدير هذه المرة، قبل أن يقول في حزم:

- أخبره بما وصلنا من الولايات المتحدة الأمريكية.. من حقه أن يعلم.

وشعر المعاون بتوتر شديد، يسري في أعماقه..

فالمعلومات الواردة من (أمريكا)، كانت كفيلة بأن تقلب حياة (أدهم صبري) كلها، رأسًا على عقب..

تمامًا..

* * *

تعقد حاجبا (ألين كوربوف)، زعيم (المافيا) الروسية، لحظة في حنق واضح، وهو يتأمل تلك الحسناء، الجالسة أمامه في هدوء، قبل أن يميل نحوها، ويسألها في خشونة، بلغته الروسية الدقيقة:

- ألا تشعرين بالخوف يا سيدتي ؟

أجابته بروسية سليمة تمامًا، وبنفس الهدوء المستفز:

- ولِمَ ؟

ازداد انعقاد حاجبيه، وهو يقول في شراسة:

- إنك تجلسين أمام أقوى رجل، في (روسيا) كلها.

تألقت تلك الابتسامة الساخرة، التي ارتسمت على طرف شفتيها، والتي انطلقت في سرعة، خلف صوتها الهادئ، وهي تقول:

- أينبغي أن يثير هذا الرعب في نفسي، أم أن يشعرني بالراحة والاطمئنان ؟!

لم يستوعب عبارتها بالضبط، إلا أنه لوح بكفه في غلظة، قائلا:

- هل تنشدين حمايتي ؟

أشارت بيدها، وهي تجيبه بنفس الرومانسية الحالمة

- لست أحتاج إليه في الواقع

علا الغضب يتسلل إليه، وهو يقول في حدة

- ولماذا أتيت إذن ؟!

تطلعت إليه بضع لحظات في صمت، قبل أن تميل نحوه وتسأله فجأة :

- كم تربح سنويًا بـ (كورلوف) ؟!

باغته سؤالها، وأثار في نفسه توترًا لا محدودًا، جعله يقول بمزيج من الحذر والعصبية

- وما شأنك أنت ؟!

كررت سؤالها في شيء من الصرامة

- كم تربح سنويًا ؟!

لم يكن من الممكن أبدًا، في أية ظروف عادية، أن يخضع (أبل كورلوف)، الذي ترتجف لذكر اسمه قلوب أعتى الرجال لامرأة جميلة، مهما بلغت فتنتها، إلا أنه، ولسبب ما، وجد نفسه يجيب في عصبية

- ما يقرب من المليار دولار

تراجعت في مقعدها، مبتسمة في سخرية

- فقط ؟!

احتقن وجهه في غضب، وهو يهتف مستنكرًا

- ومن أنت حتى

قاطعته في صرامة عصبية .

- لقد تجاوزنا نحن، في هذا العام فقط، المائة مليار

بهذا الرقم، اتسعت عيناه عن آخرهما، وسقط فكه السفلي، على نحو مضحك، جعلها تبتسم في أعماقها بسخرية، وبخاصة عندما ردد مبهوتًا

- مائة مليار ؟!

هزت كتفيها في لامبالاة، قائلة

- كان يمكن أن يتضاعف الرقم، لولا حادث طارئ

لم تحاول شرح طبيعة ذلك الحادث

ولم يحاول هو أن يسألها .

كل ما فعله هو أن حدق فيها طويلاً، قبل أن يسألها بأنفاس مبهورة:

- ماذا تريدين مني يا سيدتي؟

في هذه المرة، حمل صوته وأسلوبه احترامًا واضحًا، جعلها ترفع رأسها وصوتها في اعتداد، وهي تجيب:

- لقد ابتعت الكثير من الرجال، في تلك الصفقات الأخيرة

حسن في الفعال.

- هل تبحثين عن الرجال؟!

أجابته بمنتهى الحزم:

- وسأدفع بسخاء

ازدادت أنفاسه انبهارًا، وهو يسألها:

- كم تعرضين؟

أجابته في سرعة وحزم:

- ضعف ما تربحه في عام كامل

كاد الرقم يصيبه بأزمة قلبية، وهو يتطلع إليها، ويلهث على نحو عجيب، كما لو أنه قد بذل جهدًا هائلاً، مما أكسبها

شعورًا بأنها قد أصبحت المسيطرة تمامًا على الموقف، فخلعت أحد قفازيها، وقالت في صرامة:

- أريد الرجال بأقصى سرعة، فالصفقة تهمنا نفسها، في عامنا هذا

سألها في عصبية:

- ومتى تريدينهم؟!

شدت قامتها، وهي تنهض، قائلة:

- هذا المساء

سألها، وهو ينهض بدوره:

- أين؟!

تطلعت إليه لحظة، قبل أن تجيب:

- في مقر قيادتي الجديد

وصمتت لحظة، ثم أضافت بمنتهى الحزم:

- في (سيبيريا).

وأدرك رغم (المعطف) الروسية، أنه أمام امرأة رهيبة

امرأة تفوق كل من عرفهن ، في حياته كلها

وبكل انبهاره ، تمتم

ـ ماذا أصاب النساء ؟!

رفعت عينيها إليه ، متسائلة

ـ وماذا أصابهن ؟!

غمغم :

ـ صرن أقوى من الرجال .

صمتت طويلاً هذه المرة ، وهي تتطلع إلى عينيه مباشرة
ثم عادت ترتدي قفازها ، وهي تقول ، في بطء وحزم

ـ ربما الرجال هم الذين لم يحرصوا على ما يجب أن يكونوا عليه

ولم تزد على عبارتها ..

ولكنها انصرفت ، دون أن تلتفت إليه

أو تحاول تفسير مقالتها

ومع انصرافها ، أدرك (إيل كورلوف) أن الأمور في
(سيبيريا) لن تعود أبداً كما كانت

لامرأة كهذه ، كانت بداية الخروج

كل الخروج .

* * *

« لقد نجحت ... أليس كذلك ؟! »

علت أنشودة مستر (X) مؤلمة هذا ، لكن التعب قد بلغ
من (أدهم) مبلغه بالفعل ، حتى إنه تمنى أن يموت ، ليرتاح
من هذا العذاب ، الذي لا ينتهي أبداً

ولقد حاولت أن يتجاهل السؤال

أو يتظاهر بعدم سماعه

ولكن مستر (X) كرره إليه مرة ثانية

وثالثة

ورابعة

وخامسة

و

« كفى »

هتفت (تيا) بكلمة، وهي على وشك الانهيار، فتوقف مستر (X)، ثم سألها في صرامة

- ما جوابك

ازدردت (تيا) لعابها في صعوبة، قبل أن تومئ برأسها، متمتمة في تهالك شديد:

- نعم .. لقد فعلت

وعلى الرغم من توقعه الجواب، شعر مستر (X) بتوتر شديد، يسري في كل ذرة من كيانه.. وبدت واضحة من صوته المنفعل آليًا، وهو يقول

- فعلت ماذا ؟!

لوّحت (تيا) بيدها لحظة، قبل أن تجيب

- نجحت

تراجع في مقعده بحركة حادة.. هاتفًا

- نجحت ؟!

نطقها كما لو أن الجواب قد صدمه في عنف، ولكن (تيا) لم تشعر بانفعاله هذا، وهي تتمتم

- نعم.. نجحت

جف حلقه على نحو غير مسبوق، وهو يسألها

- وكيف فعلت ؟!

هزت (تيا) رأسها نفيًا، مجيبة

- لست أدري.

صاح بها في غضب:

- ماذا تعنين ؟ لقد أجبت منذ لحظة أنها قد نجحت!

سعلت في إرهاق، قبل أن تقول

- لقد نجحت بالتأكيد، إلا أنني لا أعلم كيف أنجزت هذا؟ كانت لديها حتمًا وسيلة ما.

قال في عصبية:

- لست واثقة إذن.

أجابت، وهي تقاوم حالة فقدان الوعي

- بل واثقة

سألها في صرامة:

- وكيف هذا ؟!

بدا لحظة وكأنها قد فقدت وعيها بالفعل، قبل أن ترفع عينيها فجأة، وتقول في حزم، انتقص منه تماسكها الكثير :

- لقد أجريت اتصالاً معي .

انتفض جسده، وهو يهتف :

- اتصال ! متى ؟!

بدت مستسلمة تماماً، وهي تجيب :

- قبل أن ألتقي بك مباشرة .

انخفض صوته مع انفعاله، وهو يسألها :

- وماذا كان فحوى ذلك الاتصال .

أسبلت جفنيها، وبدت مستسلمة أكثر، وهي تجيب :

- لن أجري اتصالي بك .

وانتفض جسد مستر (X) مرة أخرى، ويملؤه العنف ..

فما أبلغته به تلك الصينية الحسناء، كان يقلب الأمور كلها رأساً على عقب، ويملؤها العنف ..

فهو يعني أن الزعيمة الغامضة مازالت على قيد الحياة ..

والأدهى أنها تدير اللعبة كلها بالفعل ..

ومنذ البداية ..

* * *

بفكرة واحدة، ملأت كل خلية في كيانها، انطلقت (لوتشيا)، حاملة مدفعها الآلي، نحو ذلك المبنى، الذي يضم الأسرى الأربعة ..

الأسرى الذين طلبت (تيا) الاحتفاظ بهم ..

والذين أمرها (لاماس) بالتخلص منهم ..

ولأنها تبغض تلك الصينية الحسناء، مثلما لم تبغض أية امرأة من قبل، فقد قررت تنفيذ أمر محبوبها ..

واغتيال الأسرى الأربعة ..

إنها تعلم أنهم مقيدون داخل زنزانتهم ..

وأن كل ما ينقصهم هو التحرر ..

وقليل من الحزم ..

وهي لن تمنحهم فرصة لهذا أو ذاك ..

ستقتحم المكان دفعة واحدة ، وتحصد أرواحهم بمدفعها الآلي في حزم ..

ووثبت (لوتشيا) نحو باب المبنى ..

ولمحها قائد الكوماندوز ..

وبكل ما تلقاه من أوامر ، صرخ الأمريكي :

- الأسرى .. الهدف .

انتبه رجاله فورًا إلى ما يعنيه هذا ، واتجهوا بانتباههم وأسلحتهم نحو الهدف الرئيسي للعملية ..

الأسرى ..

وواجهت (لوتشيا) بالرصاصات ، تنهال عليها من كل صوب ، لمنعها من بلوغ مبنى الأسرى ..

وأدرك (لاماس) هذا ..

وأدركه رجاله ..

وأدرك الكل أن القتال قد اتجه إلى هدفه ..

ولم تعد مسألة انتصار أو هزيمة ..

أصبحت مسألة كرامة ..

وسمعة ..

وتاريخ طويل في السيطرة على الأحراش ..

أحراش (كولومبيا) .

وبكل عنف وشراسة القتلة ، راح إمبراطور المخدرات الكولومبي ورجاله يقاتلون ، لمنع (لوتشيا) فرصة بلوغ مبنى الأسرى ..

واعترضتهم ..

وتنسفهم نسفًا ..

واقترب المحاربان المتصارعان من الهدف .

وحمي وطيس المعركة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومع كثافة نيران ، لم يسبق لها مثيل ، اختطف (بابلو لاماس) من حزامه جهاز اتصال محدود ، وصرخ عبره :

ـ الهليوكوبتر .. أن الهليوكوبتر ؟!

ولم يكن قد أتم عبارته تمامًا ، عندما ظهرت تلك الهليوكوبتر ، في سماء المعركة الحامية ..

وانطلقت رصاصاتها وصواريخها ، نحو رجال الكوماندوز الأمريكيين ..

ومع ظهورها ، اختل توازن القوى في عنف ..

وتحررت (لوتشيا) من النيران ..

ومرة أخرى ، صرخ (لاملس) :

ـ الأسرى ..

وهنا ، أطلقت (لوتشيا) مدفعها ، واقتحمت مبنى الأسرى ، ورأتهم يحدقون فيها ، وأيديهم مثبتة إلى الجدار ، بأغلال من فولاذ ، وأفواههم مكممة بقوة ، فصرخت وهي ترفع فوهة مدفعها نحوهم :

ـ الموت لكم جميعًا .

وخارج المبنى ، سمع الكل دوى رصاصات ..

رصاصات قاتلة ..

* * *

« اتصل يا أستاذ .. »

ألقى المغربي العبارة في احترام شديد ، وهو يناول ورقة مطوية إلى (أدهم) ، الذي التقطها في هدوء ظاهري ، وهو يقول :

ـ كيف تم ؟!

أجابه المغربي بسرعة :

ـ كما أخبرتنا تمامًا .. من خلال ذلك الوسيط اليونانى .

همهم (أدهم) :

ـ إنه اتصال صحيح إذن .

فض الورقة في تمهل ، ولكنه لم يكد يلقي نظرة عليها ، حتى هب من مقعده بحركة حادة ، وانعقد حاجباه في شدة ، على نحو جعل الأرناؤوطي يتساءل في قلق :

ـ أخبار سيئة يا أستاذ ؟!

بدا له أن مشاعر (أدهم) كلها قد تجمدت تمامًا بضع لحظات ، قبل أن يستدير إليه ، قائلًا بمنتهى الحزم :

ـ لابد وأن أغادر .

هتف الرجلان ، في آن واحد :

- تقاتل ؟!

نطقها في شيء من الهلع ، قبل أن يتساءل الأردني ، وهو يزدرد لعابه في صعوبة :

- تقاتل (الفلوجة) ؟!

هز (أدهم) رأسه في بطء ، وهو يدس تلك الورقة في جيبه ، قائلاً بمنتهى الحزم :

- بل (العراق) .

اللهجة التي نطقها بها ، كانت تمنعهما تماماً من مناقشته ، إلا أن توتراً لا محدوداً سرى في جسديهما ، مع شعور مؤلم بالضياع ، و ....

وفجأة ! وصل السوري ..

اقتحم المكان في انفعال جارف ، وهو يرفع فوهة مسدسه ، هاتفاً :

- إنهم هنا .

استدار إليه (أدهم) مع الرجلين في تساؤل ، فتابع في انفعال أكثر :

- رجال (أبكون) هنا .. لست أدري كيف فعلوها ، ولكنهم يحاصرون المنطقة كلها ، ويطوقونها على نحو تام ، يشبه

ما فعلوه في تلك المنطقة المنكوبة ، التي شهدت مذابحهم السابقة ..

لم ينبس (أدهم) ببنت شفة ، ولكنه حمل مدفعه الآلي بمنتهى الحزم ، وهو يندفع نحو الباب ، قائلاً :

- هيا بنا .

التقط الآخران سلاحيهما بدوريهما ، وهتف الأردني بالسوري ، في توتر شديد :

- هل تعتقد أنهم سيكررون مذبحتهم ؟!

امتقع وجه السوري ، وهو يقول بكل انفعاله :

- إنهم يعلمون أننا هنا .

ومع نهاية قوله ، وقبل أن يتحرك ثلاثتهم ، بدأ رجال (أبكون) مذبحتهم الجديدة ..

بكل وحشية الدنيا ..

* * *

انتهى الجزء الثاني بحمد الله

ويليه الجزء الثالث بإذن الله

(الاحتراق)